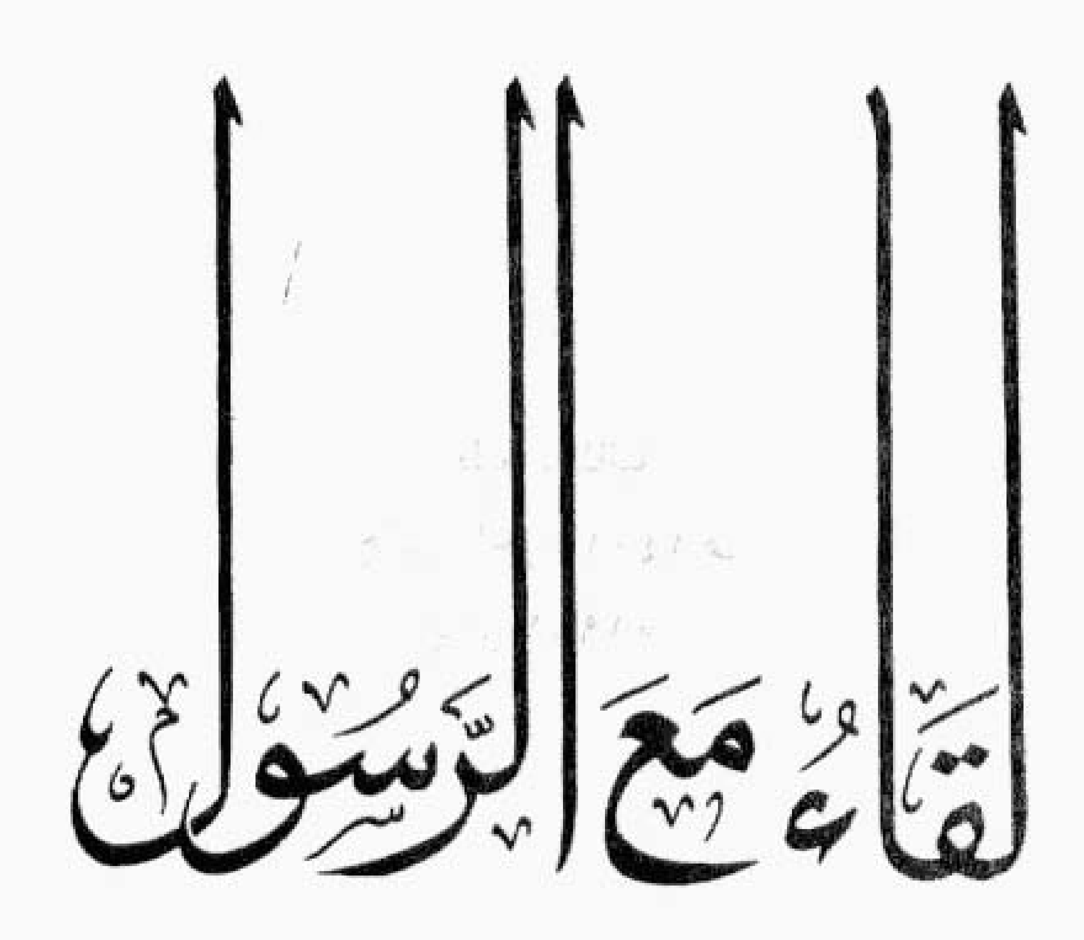
لقاء مع الرسول

صلى الله عليه وسلم

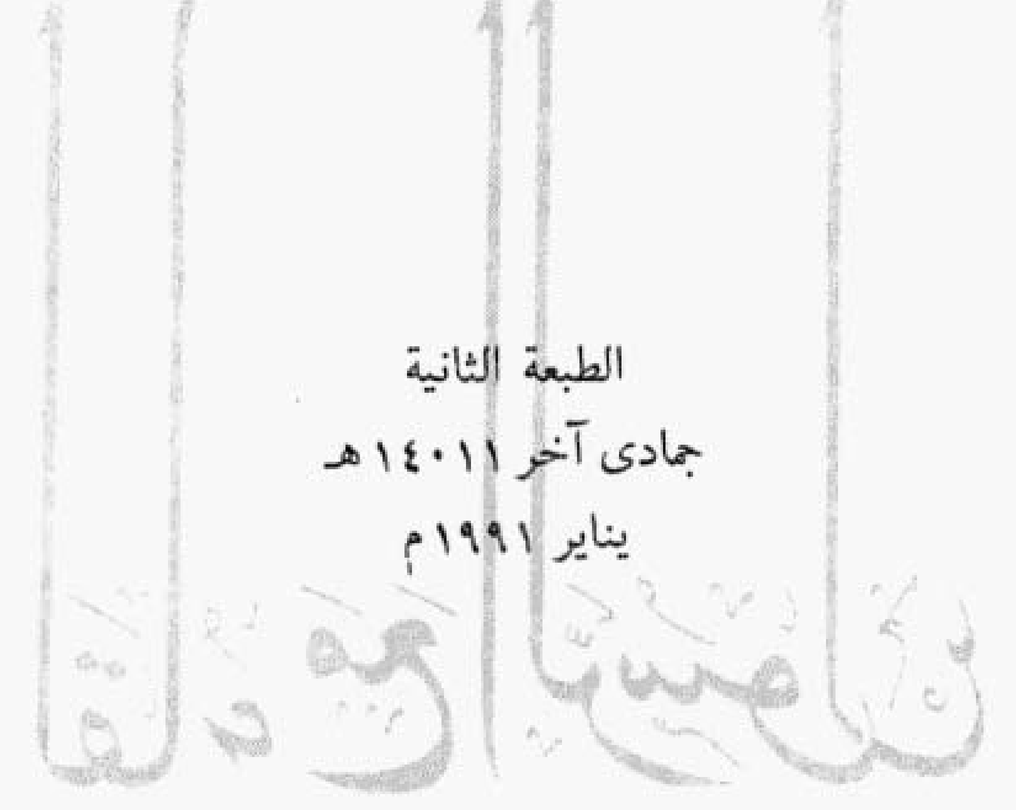
خالد محمد خالد

المقطم للنشر والتوزيع

خالد محمد خالد



دار ثابت



الطبعة الثانية

جمادى آخر ١٤٠١١هـ

يناير ١٩٩١م



THABIT PUBLISHING COMPANY

دار ثابت

٩٢أ شارع محمد فريد ص . ب . ٦ باب اللوق تليفون : ٣٩٢٩٥٧٤ القاهرة

92 (A) Muhammad Farid St. Cairo. P.O. Box 6 Bab el-Luk. Cairo Tel. 3929574

بسم الله الرحمن الرحيم



كلمة الناشر

الحياة بين يدى رسول الله ﷺ وفى صحبته، أحاديثه وجوامع كلمه متعة للروح وللعقل ليس لها نظير..

وجزى الله خيراً أولئك الرواد العظام من علماء الحديث ورجاله الذين كرسوا حياتهم لجمع وانتقاء هذا التراث الخالد الممجد من أحاديث رسولنا الكريم.

هذه الأحاديث الناصعة فى دلالتها الجامعة فى مضمونها ومحتواها..

ومع التحية التى نزكيها لأولئك الذين أفنوا حياتهم فى جمع الأحاديث وتدوينها.. مع هذه التحية بل قبلها نرفع تحية ذاكرة وشاكرة لهذا النفر الجليل والعظيم من أصحاب الرسول ﷺ الذين نقلوا إلينا ورووا لنا تلك الدرر الغالية، والتوجيهات السامية، والتعاليم الهادية..

رووها بألسنة صادقة بعد أن سمعوها بآذان واعية. فأضاءوا بها حياة الإسلام ورسخوا مبادئه.

ولقد توافر على شرح الأحاديث النبوية المباركة وتقديمها للفكر الإسلامى وإثرائه بها طائفة ميمونة من أفذاذ العلماء والحفاظ والمحدثين الذين ظهروا عبر القرون الطويلة والمديدة من تاريخ الإسلام، وكان لهم منهجهم التقليدى والواعى الذى عبروا عنه تعبيراً ذكياً جامعاً فى إطار أزمانهم وأيامهم.

وفى عصرنا هذا الذى نعيشه بدا أن القارىء المسلم فى حاجة إلى أن يطالع أحاديث رسولنا الكريم مرة أخرى بأسلوب العصر الذى يعيشه واجداً المزيد من الضوء يُلقى على الذخائر المستسرة فى محتويات تلك الأحاديث ـ جامعاً بينها وبين قضايا العصر واحتياجاته ورؤاه..

ولن نذهب بعيداً إذا قلنا أن القارىء المسلم قد وجد ضالته ومبتغاه فى مؤلفات الأستاذ/ **خالد محمد خالد** ـ لاسيا فى كتابه «**كما تحدث الرسول**» وفى هذا الكتاب الذى نسعد بتقديمه ونشره «**لقاء مع الرسول**» ـ حيث لا يزعم المؤلف أنه استوعب فى الكتابين كل ما كان يتمنى أن يقوله ويقدمه من أحاديث الرسول.. وإنما هو ـ كما يقول ـ أراد أن يقدم نموذجاً للطريقة التى ينبغى أن تقدم بها اليوم وفى عصرنا هذا أحاديث الرسول ﷺ ـ.

● ● ●

وهذا الكتاب ينتظم مقالات نشرت تحت هذا العنوان فى مجلة «المسلمون» التى كانت تصدر في لندن تم احتجبت عن قرائها لأسباب خارجة عن إرادة ناشريها الذين نرجو لهم المزيد من التوفيق والنجاح ..

• • •

والآن نتركك أيها القارىء العزيز لتقضى أسعد أوقاتك وأثمنها فى لقاء مع الرسول يتيحه لك هذا الكتاب .

الناشر

١

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»..

«وفى كل خير»..

(رواه مسلم)

يريد الرسول ﷺ للمسلمين من أمته أن يكونوا أقوياء. فالإسلام الذى هو دين العزة والقوة لا ينهض استمراره التاريخى على أكتاف المستخزين الضعفاء.

والرسول ﷺ حين دعانا إلى الإيمان، كان فى نفس الوقت يدعونا إلى القوة العادلة التى لا تعرف الخور ولا البغى..

فإذا لم يكن الإيمان مصدر القوة، فماذا يكون؟.. وإذا لم يكن المؤمن مظهرها وصاحبها، فمن يكون؟..

إن أثمن عطايا الإيمان، وأعظم هباته ــ تلك القوة المقتدرة العادلة، والعاقلة التي ينفخها في أرواح المؤمنين، ويعدهم بها للمواقف الفاصلة، وللأزمات التي تتحداها عزمات الرجال..

والإيمان ــ أي إيمان ــ يشد القامة، ويرفع الهامة، ويثبت العزيمة. فكيف إذا كان إيمانا «علوياً» يستمد من الله ذي الجلال حقيقته وقوته؟..

إن الاهتمام الكبير الذي منحه الرسل كافة، والرسول خاصة للايمان، لم يكن مبعثه مجرد الولاء الديني.. بل وكان الادراك الحق والسديد لقيمة الإيمان ودوره الفريد في نقل حياة البشر من الفراغ إلى الامتلاء.. ومن الضياع إلى الهيمنة.. ومن الظلمات إلى النور..

وعندما يقول الرسول ﷺ مثلاً:

«يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان».

فإنه يعطي صورة صادقة لاقتدار الإيمان وشموخه. فمثقال ذرة منه لا يذلل صعاب الحياة فحسب، بل وينقذ صاحبه مما ينتظر الناس في الآخرة من أهوال!!..

وفي هذا الحديث الشريف يحدثنا الرسول عن **«المؤمن القوي»**، ويضع يده الحانية الراضية عليه، ويبشره بحب الله له..

أجل.. فالمؤمن القوى أثقل فى الآخرة ميزاناً، بقدر ما كان فى الدنيا أوثق بنيانا.. وهو بين المؤمنين جميعاً الأفضل والأمثل. وعند الله الأحب والأقرب..

ولكن كيف جعل الرسول فى المؤمن الضعيف خيراً حين قال: «**وفى كل خير**». أن للمؤمن الضعيف حظه من الخير ما دام مؤمناً. ذلك ان الإيمان لا يثمر الضعف أبداً ما دام إيماناً صادقاً. فإذا ألمت بالمؤمن لحظات ضعف، فلابد أن يكون ضعفه نتيجة ظروف فوق طاقته وفوق طبيعته، ومن ثم لا يسلك فى عداد الضعفاء بارادتهم ولا الضعفاء بسبب خواء أفئدتهم من الإيمان.

لقد أضاء الرسول ﷺ قضية القوة التى يضيئها الإيمان الحق إضاءة باهرة وغامرة حين قال:

«رُبَّ أشعث أغبر ذى طمرين مدفوع بالأبواب،
لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره» !!..

إن معنى «لو أقسم على الله لأبره» أنه يستطيع بإيماءة من أصبعه أن يجعل الجبال تسير، والبحار تمور.. فمن أين له هذه القوة، وهو الأشعث الأغبر الذى يذاد عن المجالس، ويدفع عن الأبواب ولا تقع عليه العين فى زحام الحياة ؟؟!..

إنه الإيمان الذى وصله بالعلى الأعلى، وزوده بقوة غلابة، وجعل منه عبداً «ربانياً» يكاد يقول للشىء كن فيكون !!..

والقوة التى يزكيها الرسول ﷺ فى هذا الحديث تستمسك بعض الحكمة. فهى ليست صياحاً ولا نباحاً. إنما هى التعبير السديد والرشيد عن تماسك الشخصية وثباتها وعمق أغوارها وصلابة عودها..

وهي لأنها حكيمة وعادلة، لا تعنى باستعراض العضلات. بل تعنى بامتلاك النفس.. وفى هذا يقول الرسول الكريم:

«ليس الشديد بالصرعة، وإنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب»..

إن «الصرعة» الذى يصرع الناس بقوته البدنية لا يأتى أمراً مذكوراً.. ولكن الذى يرد نفسه عن هواها وبغيها ويدخر قوته لنصرة الحق وإعلاء كلمة الله هو القوى حقاً..

إن القوة الباغية الباطشة والطائشة، تلك التى يحسبها الناس قوة ويعدون صاحبها قوياً ليست على شيء. فالحيوان يملك من مثل هذه القوة أضعافها.

وإن القوة التى ينشدها الرسول ﷺ ويرسل إليها تحيته، هى تلك التى تعبر عن الرشد الإنسانى تعبيراً سديداً.. هى القوة الحكيمة العادلة المتأنية التى لا يعرف النزق والتهور إليها سبيلاً..

«ليس الشديد من غلب الناس. إنما الشديد من غلب نفسه».

فغلبة النفس والانتصار عليها من أمائر القوة الصادقة.

والانتصار على النفس يتمثل فى حملها على منهج الله وما أراده للناس من فضيلة وحق وخير. كما يتمثل فى كفها عن التهور والطيش وفى تماسكها أمام الأحداث التى تهتاج الحليم.

«الصرعة كل الصرعة، الرجل الذى يغضب فيشتد غضبه، ويحمر وجهه، ويقشعر جلده، فيصرع غضبه»!.

ففى هذا الحديث يرسم الرسول ﷺ صورة لرجل ائتمرت به كل دواعي الغضب، والاهتياج، وأخذت سبيلها إلى ما لا يملك من مظاهره العضوية فاحمر وجهه، واقشعر جلده. لكنه سرعان ما حرك إرادة القوة فى نفسه المدربة، فصرع غضبه واسترد سكينة نفسه.

إن سكينة النفس من أعظم عناصر القوة الفعالة سواء أمام خصم يستفزك، أو مشكلة تزعجك، أو موقف لافح يتطلب منك قراراً.. يقول عليه الصلاة والسلام لواحد من أصحابه:

«إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله ـ الحلم، والأناة».

قلنا إن القوة الحقة هى التى تنطوى على قدر مماثل من الحكمة. فقوة المؤمن قوة حكيمة تستعصى بالأناة وبالحكمة عن الاقتلاع والتمزق والتطرف.

وحاجة القوى إلى الحكمة أشد من حاجة سواه. بيد أن الحكمة مع القوة لانعنى بها التبرير بل التنوير.. أى أن المؤمن القوى الحكيم لايتوسل بالحكمة إلى تبرير الهروب من مسئولية تتطلب البذل والتضحية. بل يتوسل بها إلى رؤية الحق فى موقفه، ثم حشد قواه للعمل وفق هذا الحق الذى تبلج واستبان..

عندما نزل الوحى بالآية الكريمة:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ ﴾

[سورة المائدة الآية: ١٠٥].

فهمها المسلمون وهم بين يدى رسولهم الفهم الذى حملوا به مسئولياتهم شجعاناً أقوياء.. ولكن يبدو أنه بعد وفاة الرسول ﷺ ظن بعض المسلمين الجدد أن الآية تبرير للانطواء على الذات، وتفض الأيدى من مشكلات الجماعة ومسئوليات المشاركة.. هنالك وقف الصديق «أبو بكر» رضى الله عنه يعلمهم أن فهمهم للآية غير سديد فقال:

«يا أيها الناس: إنكم تقرءون هذه الآية وتفهمونها على غير وجهها. وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده»..

وعلمهم أن قول الله سبحانه **(لا يضركم من ضل إذا اهتديتم)** لا يعنى أبداً تبرير الهروب من مسئولية المقاومة الحازمة لظلم الظالمين وعبث المفسدين بل يعنى أن ظلم الظالم، وضلال الغاشم لن يضرهم شيئاً إذا هم اهتدوا لمقاومتها ودحضها..

يقول عليه السلام:

«إذا رأيت أمتى تهاب أن تقول للظالم: يا ظالم، فقد تودع منها»..

فقوة الجماعة.. قوة الأمة.. تتبدى أول ما تتبدى فى موقفها الحازم تجاه أى ظلم سياسى أو اجتماعى مهما يكن مصدر هذا الظلم.. وإذا ذلت الأمة، وهانت أمام جبروت طغاتها رفع الله يده عنها، ثم لم يبال فى أى واد هلكت، ولا فى أى هوة فاغرة سقطت !!..

• • •

وطبيعى ألا ينسى الرسول ﷺ وهو يتحدث عن قوة المؤمن ما يجدر بالفرد أن يصطنعه لنفسه منه وسائل الصحة والعافية للجسم والنفس معاً..

إن الجسم هو الذى يشكل قدرتنا على الحركة والعمل. والنفس هى الجهاز الذى يشكل قدرتنا على التفكير والشعور والارادة. بل والعمل أيضاً..

والعافية اللازمة لكلا الجهازين هى سبيل القوة المثلى ..

وعن عافية الجسد نرى الرسول يقول :

« نعمتان مغبون فيها كثير من الناس : الصحة والفراغ » ..

ونراه يقول :

« إن لبدنك عليك حقاً » ..

وأنه لتعبير باهر أخاذ . وما أكثر ما نمر به قارئين أو مستمعين دون أن تبهرنا غزارة مضمونه . فبينما تقوم العبادة والنسك على إنهاك الجسد لتربو طاقة الروح ، يجيء أمام المتقين فيهتف بحق الأبدان فى الصحة والقوة والعافية قائلاً :

« إن لبدنك عليك حقاً » ..

وتزداد دلالة الحديث سطوعاً حين نقرنه بالمناسبة التى قيل فيها ، فلقد قاله الرسول عليه السلام لرجل من أصحابه جاء يستأذنه فى أن يقضي عمره صواماً بالنهار قواماً بالليل . فرفض الرسول ﷺ هذا الايغال فى العبادة ، لأنه سيتم على حساب البدن القوى والجسم المعافى !! ..

وفى أحد أسفاره وكان صائماً والمسلمون صائمين ، أفطر عليه السلام من صيامه وأمر أصحابه أن يفطروا ، فأفطروا إلا نفراً منهم

بقى مثابراً على صيامه . فلما علم الرسول ﷺ بأمرهم قال عنهم :
«أولئك العصاة .. أولئك العصاة» !! ..

وأنه ليعلمنا أن نسأل الله العافية فى الدين والبدن ، فى الدنيا والآخرة .

أجل . إن الرسول البر الرحيم الذى يعرف ضعف الإنسان والذى يرجو للمؤمن قوة الجسد وقوة الروح يلح علينا فى حنان مفيض أن نسأل الله العافية دوماً .. يقول عليه السلام :

«سلوا الله العفو والعافية ، فإن أحداً لم يعط بعد اليقين خيراً من العافية» ..

ويسمع عليه السلام أحد أصحابه يوماً يدعو الله قائلاً : اللهم إننى أسألك الصبر ، فيقول النبى له ولأصحابه من حوله :

«لا يقولن أحدكم اللهم ارزقنى الصبر ، ولكن ليقل اللهم إنى أسألك العفو والعافية ، فإن الله لا غالب له» ..

وإشادةً بفضل الصحة التى تجعل الإنسان قوياً وثيق التركيب ، يوصينا الرسول عليه السلام إذا رأى أحدنا مريضاً أن يقول :

«الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به غيرى ، وفضلنى على كثير ممن خلق تفضيلاً» ..

إنها حفاوة عظيمة بالصحة وبالعافية، يعلمنا الرسول ﷺ كيف نقدر الصحة قدرها ونعطيها حقها باعتبارها الحارس لقوة الفرد وصموده.. هذه القوة التى يحرص عليها الرسول ﷺ ليتم عن طريقها بناء المجتمع القوى الذى ينتظم أفراداً ناشطين أقوياء، لا تدغدهم العلل والأسقام ولا يقعد بهم الضعف والهزل.

يقول عليه السلام فى مناجاته ربه:

«اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا»..

ويأمرنا باستخدام الدواء إذا دعت دواعيه، ويرفض مسلك الذين يدعون الدواء اتكالاً على الله..

سأله بعض أصحابه: يا رسول الله. أرأيت أشياء نتداوى بها، أترد من قدر الله شيئاً، فقال عليه السلام: **«هى من قدر الله»!!..**

واهتماماً منه بقوة المؤمن وصحة جسده يدعو إلى الحمية، والحد من الشره فى الطعام:

«نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع»..

هذا هو دستور المطعم الناجح النافع ـــ لا أكل إلا عند جوع، ولا شبع إلى حد التخمة.. إن الغاية من الطعام هو إمداد الجسم بما يحتاج من سعر حرارى وطاقة.. وإذن:

«حسب ابن آدام لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لابد، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه».

هكذا يتتبع الرسول ﷺ كل مظان العافية والقوة للجسم فيوصى بها ويدعو إليها لأن المؤمن القوى كما قال **«خير من المؤمن الضعيف»**.

• • •

أما قوة النفس والروح فتتمثل فى أحاديث الرسول فى أمرين:

(أ) صحة الإيمان وقوته..

(ب) صحة السلوك واستقامته..

إن الإيمان — كما ذكرنا — نبع القوة الأعظم. وهو حين يصح ويستمد وجوده من معطيات الشريعة والوحى فإنه يحلق بالمؤمن فى سماوات بعيدة لا يلحقها ضعف ولا خذلان.

إن المؤمن صحيح الإيمان وقويه، يتحقق فيه قول الرسول ﷺ:

«لو اجتمعت الأمة على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشىء كتبه الله لك..
ولو اجتمعت على أن يضروك، لم يضروك إلا بشىء كتبه الله عليك»..

أهناك مثل هذا اليقين شيء يمنح صاحبه القوة، والتفوق والاقتدار؟؟..

إن الإيمان الصحيح الراسخ هو الذى أفاء على القلة المؤمنة مع كل رسول وفى كل دين الثبات المذهل على الحق، والتحدى الجسور لقوى الشر والظلام..

يقول: «عبادة بن الصامت» رضى الله عنه:

«بايعنا رسول الله ﷺ على أن نقول بالحق أينما كنا. لانخاف فى الله لومة لائم»!!..

هذا مظهر القوة الجليلة التى يفيئها الإيمان، وهو وحده كاف لرجحان رجولة صاحبه ــ أى رجحان.

والقوة الخارقة هنا تستمد صلابتها من الإيمان الذى تعلم وتتلمذ على يد خير المرسلين.. الإيمان الذى صنعه «**محمد**» وصاغه..

«من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مئونة الناس..
«ومن التمس رضا الناس بسخط الله، وكله الله إلى الناس»..

إن أى مؤمن تدلف إلى قلبه، وتنصب روحه ووعيه هذه الكلمات لابد وأن تنأى به عن كل ضعف وتهالك ومداهنة..

لابد أن تجعل منه فرداً مفرداً، وكياناً شاهقاً، له رأيه الحر، واقتناعه الوثيق، وارادته المستبسلة.. وكيف إذا تضمخ إيمانه بعبير هذه الكلمات:

«لا يكن أحدكم إمعة، يقول: أنا مع الناس. إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساءوا أسأت.. ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا.. وإن أساءوا أن تتجنبوا إساءتهم»..

إن الإيمان الذى ارتوى من هذه التعاليم المحمدية هو الذى يهب النفس قوتها والروح عظمتها، لأنه إذ يتضمن المعرفة الحقة بالله، واليقين الراسخ بقدرته وبقوته، لا يدع فى النفس المؤمنة فراغاً تمرح فيه هواجس الخوف، ولا هواناً تزجيه عوارض الضعف ويصبح صاحبه مؤمناً، ويمسى مؤمناً. يحب فى الله، ويبغض فى الله ويعطى لله، ويمنع لله ولا يخشى إلا الله وعندئذ يكون كما وصف الرسول ﷺ **(قد استكمل الإيمان)..**

أليس هذا الطراز من المؤمنين هو الذى وصفه الرسول ﷺ فيما رواه عن ربه عز وجل:

«كنت سمعه الذى يسمع به.. وبصره الذى يبصر به.. ويده التى يبطش بها»..

أهناك مستوى للقوة يقارب هذا المستوى. أن تسمع بسمع الله، وتبصر ببصر الله، وتبطش بيد الله؟!.

هذا هو مسبار المؤمن القوى الذى يتحدث عنه الرسول ﷺ ويتمناه..

وإننا حين نقلب أبصارنا بين الصفوف العريضة المباركة من أصحاب الرسول الكريم. ونرى بطولاتهم الخارقة، وعظمتهم السامقة وقوتهم الواثقة ـ لانجد وراء هذا كله سوى الإيمان العظيم الذى غرسه الرسول والقرآن والإسلام فى أفئدتهم الضارعة، والصادقة ـ فإذا هم ربانيون، تتلاشى أمامهم الصعاب، وتتهاوى المستحيلات. ويريدون فيسارع إلى مشيئتهم كل قصد وكل مراد!..

هذا الإيمان واهب القوى للمؤمن هو الذى يتكون فى عالم النطف من آيات القرآن وتعاليم الرسول ﷺ..

لقد قال الله عن خليله ابراهيم عليه السلام:

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾

[سورة النحل الآية: ١٢٠].

كان أمة وحده فلماذا؟ لقد أجاب القرآن حين قال:

﴿ قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾

هذا هو الإيجاز الرائع لكل قوى الإيمان وجوهره، والإيجاز الرائع لكل مظهر المؤمن ومخبره..

هذا المؤمن الذى يباهى الله به ملائكته، لأنه تفوق على كل ماتموج به النفس البشرية من مغريات ومثبطات، وارتفع إلى آفاق متسامية عانق فيها كلمة الله وهداه..

وهذا يفضى بنا إلى العنصر الثانى من عناصر قوة النفس والروح. ذلكم هو: صحة السلوك واستقامته..

إن السلوك القويم هو النسيج الحى للإيمان القويم.. ودائماً يحسن الإيمان من يحسن العمل!!..

فالإيمان لايعمل فى فراغ. وسنصغى دوماً للقرآن وللرسول وهما يربطان الإيمان بالعمل الصالح كلما جاء ذكر الإيمان..

واستقامة السلوك تمنح المؤمن من الثقة والسكينة والقوة ما لا يمنحه سواه..

لذلك أمر الله نبيه قائلاً:

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾

[سورة هود الآية: ١١٢].

وبشر المستقيمين بقوله:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

[سورة الاحقاف الآية: ١٣، ١٤].

ويذهب واحد من أصحاب الرسول ﷺ إليه يسأله : يا رسول الله . قل لى فى الإسلام قولاً ، لا أسأل فيه أحداً غيرك .. فيجيبه الرسول ﷺ قائلاً :

« قل آمنت بالله ، ثم استقم » ..

يقول الإمام النووى : (قال العلماء : معنى الاستقامة لزوم طاعة الله تعالى ، وهى من جوامع الكلم ، وهى نظام الأمور) .

والاستقامة ثمرة المجاهدة . ونحن مطالبون بأن نجاهد أنفسنا جهاداً أكبر حتى نلزمها كلمة التقوى وحتى نكون ممن قال الله فيهم :

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

[سورة العنكبوت الآية : ٦٩] .

وهذه المجاهدة هى جماع الخير ومصدر القوة للمؤمن ، ولابد منها لترويض النفس وكبح جماح الهوى ..

يقول عليه السلام :

« حجبت النار بالشهوات ، وحجبت الجنة بالمكاره » .

إن المؤمن معرض فى دنياه للمهاوى والموبقات ، ومجاهدته النفس أعظم تدريب يمكنه من إحراز القوة التى نتحدث عنها وهى قوة الروح .

وجهاد المؤمن لايذهب عبثاً، بل يضع قدميه على صراط الفضيلة، وينفى عن روحه العجز والارتخاء، ثم بعد ذلك أو قبل ذلك يحتفظ له طهر روحه واستقامة سلوكه وينجيه من الفتن التى تضرب بجرانها فى كل زمان ومكان..

يقول الرسول ﷺ :

«بادروا بالأعمال الصالحة فتنا كقطع الليل المظلم. يصبح الرجل مؤمناً، ويمسى كافراً.. ويمسى مؤمناً، ويصبح كافراً.. يبيع دينه بعرض من الدنيا»..

وهنا يأمرنا الرسول ﷺ أن نبادر الفتن بالاعمال الصالحات، وذلك باستقامة السلوك والسير على منهج الله..

● ● ●

ولكن ماذا نعنى بصحة السلوك حين قلنا: صحة السلوك واستقامته ؟.. إن السلوك يكون صحيحاً إذا وافق الحق والخير.. ولم يترك شيئاً من شئون الدين والدنيا إلا دلنا على وجه الخير فيه..

فصحة السلوك تعنى ــ لاسيا فى العبادات ــ المتابعة الصادقة والواعية لهدى الرسول وسنته..

يقول عليه الصلاة والسلام :

«عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى.. عضوا عليها بالنواجذ»..

إن الرسول الكريم لم يترك شريعته وسنته لنتخذ منها «ديكوراً» بل لنتأسى بها فى حياتنا.. ومن أجل هذا تركها واضحة مسفرة، لا غموض فيها ولا ألغاز..

«تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها. لا يزيغ عنها إلا هالك».

عليه صلاة ربنا وسلامه..

ولقد حذرنا من التطفل على دينه وشريعته بالابتداع، فنزيد أو نحذف:

«فإن كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار»..

هكذا حذرنا عليه السلام..

وأنه ليؤكد هذا المعنى فيقول:

«.. وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة.. كلها فى النار، إلا من كان على ما أنا عليه أنا وأصحابى»..

فالسلوك الصحيح إذن، والعمل الصالح هما اللذان يستنيران بنور «**محمد**» عليه أزكى السلام ويتجنبان الابداع والاصطناع.. ولا يحرفان ما أنزل الله ولا ماسن رسوله وحبيبه..

ولما كان الابتداع فى الدين كثيراً أو دائماً يجىء عن طريق نفر من الذين يتزعمون الناس بحكم وضعهم الدينى بوصفهم شيوخاً أو علماء، فقد وضع الرسول عليه السلام تحفظاً تجاه هؤلاء فقال:

«إنما أخاف على أمتى الأئمة المضلين»..

فصحة السلوك هى حسن متابعة الرسول. واستقامته هى السير قدماً على منهج الحق وصراط الفضيلة والخير..

• • •

وبعد، فهذه كلمات، أو لحظات وقفناها مع رسول الله ﷺ وهو يصوغ بناء المؤمن القوى.

هذا المؤمن الذى يملك بقوة روحه وإقتدار إيمانه لمصاير نفسه وفقاً لوعد الله إياه..

هذا الذى هيأته قوته لأن يكون ـ كما قال الرسول ﷺ ـ **من خير العباد وأحبهم إلى الله..**

٢

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان».

(أخرجه الترمذى وصححه)..

لقاؤنا الآن مع الرسول الكريم وهو يتحدث عن الإيمان..

وأنه لحديث مشرق ووثيق.. يرسم فيه الرسول ﷺ صورة جليلة للإيمان..

الإيمان.. ذلك الذى يهب الإنسان طاقة لايفل مضاؤها ولا ينصل بهاؤها.. وإذا كان هذا الحديث الوجيز يمنح ذلك الأمل العريض الواسع فى رحمة الله، فإن بين أيدينا أحاديث أكثر تحدثنا عن قضية الإيمان حديثاً مفصلاً، وتصلنا بتبعاته الشداد..

ونبدأ اللقاء ذاكرين أن الإيمان بالله العلى القدير فطرة فطر الله الناس عليها ــ يقول عليه السلام:

«كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه»..

ولقد ركبت الطبيعة البشرية بحيث لا يملك الناس أن يعيشوا بغير إيمان.. الإيمان بأى شىء يفرض نفسه على العقل وعلى الوجدان !!..

وحين ينظر كل منا داخل نفسه، ويجوس خلال تجاربه يجد هذه الحقيقة فى حياته.. حتى الذين يلحدون، نراهم مؤمنين بإلحادهم..

بيد أن الإيمان العلوى ــ الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر.. هذا الإيمان هو نفحة الله لعباده المؤمنين وهديته إليهم..

ودور الدين السماوى ــ أى دين ــ أن يهدى الناس إلى هذا الإيمان الحق، ويساعد الفطرة الإنسانية التى يستكن الإيمان بين حناياها.. يساعدها على النمو البصير..

ونقطة البدء فى ترشيد الفطرة حتى تخرج من الأكمام إيمانها، إدراك أن هذا الخلق وذلك الكون لم تنجبها صدفة عمياء. بل هما من صنع أقدر القادرين، وأحكم الحاكمين..

يقول عليه الصلاة والسلام :

«كان الله تعالى، ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض وكتب في الذكر كل شيء».

ففي البدء، بل قبل البدء كان الله، الأول بلا بداية، وكانت قدرته ترف فوق عالم من الماء.. عالم خلو من كل مظاهر الحياة. ثم قال الله للكون كله: كن.. فكان!!..

• • •

ولم يكن مع الله أحد، ولا يزال وسيظل فرداً صمداً لا معين له، ولا شريك له. ومن ثم جعل الرسول ﷺ الإيمان بهذه الوحدانية محض الإيمان، وتمام مثوبته..

فيقول عليه السلام:

«من شهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان عليه من العمل»..

وقوله عليه السلام ــ **على ما كان عليه من العمل** ــ يصلنا بالشكل الخارجي للإيمان وهو لا يقل في ضرورته عن ضرورة الإيمان ذاته. فالله سبحانه حينما يتحدث في قرآنه العظيم عن

الإيمان يتبعه بالحديث عن العمل.. وحين يتحدث عن المؤمنين ينعتهم بأنهم الذين يعملون الصالحات:

«إذا أسلم العبد، فحسن إسلامه، كتب الله له كل حسنة كان أزلفها، ومحيت عنه كل سيئة كان أزلفها ــ وكان بعد ذلك القصاص، كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف.. وكل سيئة تكتب بمثلها حتى يلقى الله تعالى»..

هكذا تحدث الرسول ﷺ مزكياً دور العمل الصالح فى الدلالة الصادقة على وجود الإيمان. فالذين يكتفون بمجرد الإيمان بالله، ثم ينكصون عن طاعته، ويخف ميزانهم أو يخلو من الأعمال الصالحات، يظل إيمانهم كالذبابة الكابية. لا تلبث حين تمسها ريح وهنانة أن تغمض وتنطفىء..

وهنا نلتقى بالرسول عليه الصلاة والسلام، وهو يقول:

«ليس الإمان بالتمنى، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل»..

«وأن قوماً غرتهم الأمانى يقولون نحسن الظن بالله تعالى.. وكذبوا، لو أحسنوا الظن، لأحسنوا العمل»..

ومن تمام الإيمان بالله، التوكل الصادق عليه، واللجوء الدائم إليه، والاتصال الوثيق به..

والمؤمن بهذا التوكل، واللجوء، والاتصال يلتقى بالحياة الراشدة المطمئنة ويجمع أعمق حاجات النفس بأعمق حقائق الإيمان، بل هو يؤلف بين حاجات نفسه وحقائق إيمانه، فإذا الصعاب والمشاق التى تتقطع الانفاس أعياء منها، تتحول إلى انسيابات وديعة تقهر الصخر، وتتخذ سبيلها فى الحياة سرباً.

إن الناس يصابون بالضجر واليأس حين يظنون أنهم موكولون إلى قوتهم وحدها. أما حين يدركون الحقيقة بأن مصدر الوجود الأعظم.. الله العلى الأعلى يبسط يمينه عليهم، ويشد أزر المؤمنين منهم فإنهم ساعتئذ يتفوقون على الضعف وعلى اليأس وعلى الخذلان.. وفى هذا المعنى يعلمنا الرسول ﷺ فيقول:

«احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك.. إذا سألت، فاسأل الله.. وإذا استعنت فاستعن بالله..

واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء كتبه الله لك.

وان اجتمعوا على أن يضروك بشىء، لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك»..

هكذا يدرك القلب المؤمن الذكى أن الكلمة الأخيرة فى كل شىء إنما هى لله رب العالمين، وأن الإنسان بقدر إيمانه بالله وبقدرته يكون تفوقه على كافة المعوقات..

وكما قلنا، فإن وجود الإيمان يقتضى وجود العمل الذى يقتضيه هذا الإيمان..

من أجل ذلك نرى الرسول ﷺ يربط دائما بين الإيمان ومكارم الأخلاق، فهو مثلاً يقول:

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه».
«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليصل رحمه».
«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليعمل خيراً أو ليصمت»..

والإيمان بالله تعالى، وتعلق الرجاء الإنسانى بقدرته وبرحمته ليسا مجرد عزاء يقدمه الرسول للمؤمنين، بل هما الحق الذى ليس هناك فى دنيا الواقع حق يضاهيهما صدقا ورسوخاً..

وليس على المؤمنين إلا أن يقتربوا بعملهم الصالح من أبواب الله المفتوحة دوماً. وهناك يبصرون القوى المذخورة الهائلة التى يضعها الله فى خدمتهم مصداقاً لقوله سبحانه فى الحديث القدسى:

«من تقرب إلى شبراً، تقربت إليه ذراعاً.. ومن تقرب منى ذراعاً، تقربت منه باعاً.. ومن أتانى يمشى، أتيته هرولة»!!..

والإيمان ارتباط وثيق بالآخرين ، وعمل دائب فى الخير المشترك بين الناس كافة ..

يقول عليه الصلاة والسلام :

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ..

وهذا تصوير للإيمان سام ورفيع ..

فالمؤمن لا يكون مؤمناً حتى يحمل تبعاته تجاه إخوانه بنفس الشوق وبنفس الجهد اللذين يحمل بهما تبعاته تجاه نفسه ..

« والله فى عون العبد ، مادام العبد فى عون أخيه » ..

هكذا يعلم استاذ البشرية .. وهو يعلمنا أن المؤمن ليس هو من يفعل الخير فحسب . بل ومن يساعد الآخرين على فعل الخير..

يقول عليه السلام :

« من دعا إلى هدى ، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً » ..

ويقول :

« لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً ، خير لك من حمر النعم » ..

إن إيمانك بالله رب العالمين، ينتظم فى مضمونه الاهتمام بقضايا الناس ومشكلاتهم..

«الخلق عيال الله، وأحب الناس إلى الله أنفعهم لعياله»..

ونضوب الاهتمام بالناس فى نفس العبد يعنى نضوب إيمانه وهزاله.. فالخلق كما يقول الحديث الشريف **«عيال الله»** والله يرفض أى طغيان عليهم، وأى استخفاف بهم، وأى لامبالاة تجاههم.. وهكذا يبدوا الإيمان تكريماً للإنسان أكثر منه تكليفاً، لأنه يحيى إنسانيته حين يجعلها ندية العطاء والبذل للآخرين..

● ● ●

والإيمان بالله يتطلب ـــ كما يعلمنا الرسول ـــ الإيمان بالغيب.. وهو عليه الصلاة والسلام يشخص ذلك الغيب فى الملائكة، والكتب المنزلة والرسل، واليوم الآخر، والقدر..

ففى حديث عمر:

«.. قال فأخبرنى عن الإيمان»..

قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»..

وأمام عقيدة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالبعث وبالقدر، نجد مضموناً إنسانياً وتقدمياً إلى أقصى حدود التقدم..

أى أن الإيمان بهذا الغيب، ليس تخلفاً فى التفكير كما يحلو للماديين الملحدين أن يقولوا. بل هو آية على سعة الأفق الإنسانى واحترامه للحقيقة التى لا يدرك العقل البشرى مداها..

• إن الملائكة هم قوى الخير غير المنظورة.. ونحن نحس آثار وجودها فى حياتنا وإن لم نرها ونبصرها..

• والكتب والرسل هم قوى الخير المنظورة التى أدت دورها على أرضنا وبين صفوفنا، أى هى التراث الحى النابض فى الأرض بكلمات السماء، وهى غيب لأننا لم نعاصرها ولم نشهد الكتب السالفة ولا المرسلين السابقين، ومع ذلك فنحن نؤمن بها. وفى إيماننا بها ثقة بأن البشرية عامرة بالخير وأن الله واضع ـ أبداً ـ يد رحمته وعنايته فوقها.

• واليوم الآخر يعنى البعث بعد الموت، وهو بهذه المثابة يعنى أيضاً أن الإنسان أجل خطراً، وأبقى ذكراً من أن تنتهى حياته بتلك الغيبوبة العميقة التى نسميها الموت، والتى تأتيه وتنتزعه من وجوده الأرضى. أجل.. إنه أعظم شأناً من أن ينتهى هكذا كالشهاب. بل أن له لبقاء وخلوداً..

• والقدر يعنى أن الحياة لا تتخبطها العشوائية، ولا الصدفة الغامضة. بل يحكمها قدر حكيم عليم لا حصر لقوانينه، ولا منتهى ليقظته.. ويعنى أنه لا يوجد فى العالم كله، ولا فى الكون جميعه قوة يستطيع أن تقف فى طريق المشيئة الالاهية، أو تعرقل إرادة الله..

وهذا يعنى بدوره أن الإنسان الذى يمسك الله بمصايره وبمقاديره إنما يأوى إلى ركن شديد، وإنما تسانده فى الحياة قوة لا تحد ولا تغلب.. ومن ثم فإن عليه أن يوطد إيمانه ويزكى وجوده باحترام مشيئة الله، والتسليم بحكمته فى نفس الوقت الذى يمارس فيه مسئولياته وفق الأسباب والقوانين التى سنها الله، والتى دعينا للسير معها وفى صحبتها..

وهكذا يبدو الإيمان بالغيب كما قلنا تكريماً للإنسان، لأن الذى توضع على طريق تقدمه قوى الخير المنظورة كالمرسلين، وغير المنظورة كالملائكة تشد أزره وتهديه.. والذى لم يخلق ليفنى كما تفنى الهوام، بل خلق ليبقى، وليستأنف حياته بعد الموت فى خلود أبدى لا يؤذن أبداً بانتهاء..

هذا الإنسان لا يمكن أن يكون إيمانه بالغيب مدعاة لتقهقره وتخلفه.. بل هو يحفزه إلى ملء حياته الدنيا بالخير وبالتفوق حتى يؤهله ذلك لاستئناف حياته بعد الموت فى خلود بهى وعظيم.

هكذا يبدو الإيمان بالله وبالغيب قوة تقود آمال البشرية نحو مصيرهـا الأفضل والأمثل..

وهكذا يعلمنا الرسول ﷺ أن فى الإيمان سعادة الإنسان، وفيه مجده العظيم..

٣

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى» ..

(رواه البخارى ومسلم)

لقاؤنا الآن مع الرسول وهو يحدثنا عن الاخلاص..

والاخلاص غاية تتطلب قوة عظمى للظفر بها .. بيد أنها لن تكون بحال قوة العضل المفتول، ولا النفس المتسلطة، ولا الجموح العاصف. بل قوة النفس الباطنة. والنفس الباطنة فى جوهرها، هى إرادة الخير بكل ما تمثله هذه الارادة من صدق، وإخبات.. هى استقامة الضمير فى أبهى صور هذه الاستقامة .. هى صدق الاتجاه إلى الله، وتمام الإخلاص له ..

والمخلصون، هم أولئك الذين كان الرسول ﷺ يبحث عنهم، ليخرجهم من الصفوف المزدحمة، وينفض عنهم غبار التيه، ويشد فيهم زناد التفوق، ويجعل منهم رايات متألقة وخفاقة في سماء الحياة..

وتحويل النفس الباطنة إلى نفس مطمئنة وصادقة، مشعة بالخير وتواقة إلى الكمال، هذا التحويل هو غاية الدين، وغاية المرسلين..

إن نوايانا تشكل أعمالنا وتوجهها، والعمل مهما تكن ضخامته وخطره لا يكون متقبلاً ولا جليلاً ولا صادقاً، إلا بقدر ما تكون النوايا الكامنة وراءه جليلة وصادقة..

وأعمالنا رهينة بنوايانا، وقيمتها إنما تستمد من النيات التى تدفعنا إليها وتجمعنا بها..

من أجل هذا، قال الرسول ﷺ حديثه الجامع: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى»..

لم يقل عليه السلام: وإنما لكل امرىء ما عمل، لأن العمل يفقد ذاته ويفقد اعتباره إذا لم تدعمه نية خيرة وفاضلة..

وفى هذا الحديث نرى قاعدة ترتكز عليها وتنهض فوقها كل قيم الحياة، ونرى «البوصلة» التى تحدد وجهة السلوك الإنسانى وتميز خبيثه من طيبه..

فالأعمال — جميع الأعمال — لا تستمد قيمتها من شكلها الخارجي، بل من ضميرها الخفى..

ولكل عمل ضميره. وضميره، النية التى تشكله وتحفز إليه.. وأن الرسول يعلمنا أن العمل يفقد كرامته إذا فقد النية الصالحة التى تجعل منه عملاً صالحاً. من أجل ذلك أنشأ هذا الحصر الجامع فقال: **« إنما الأعمال بالنيات »**. ومن أجل ذلك أقام الميزان الصحيح الذى توزن به أعمال البشر فقال: **« وإنما لكل امرىء ما نوى »..**

إن « أحلامنا » لا أعمالنا هى التى تكشف عما فى داخلنا من ثقة واقتدار..

وأحلامنا ونوايانا هى الجوهر الحقيقى لصورة حياتنا.. ويعطى الرسول الكريم هذا المعنى صورته الباهرة حين يقول: **« إنما يبعث الناس على نياتهم »..**

فنوايانا تسعى بين أيدينا حيثما كنا، وكانت لنا حياة.. والعمل الذى يبدو شجاعة فى الحق، أو مبالغة فى الجود، أو تفانيا فى فعل الخير لن ينظر الله إليه حتى ينظر أولاً إلى النوايا التى كانت من ورائه تدفعه وتقوده..

فإذا وجدت النية الصالحة، بعثت العمل إلى الوجود من جديد، ولقى من الله حفاوة ومثوبة..

وإذا لم تكن ثمة نية صالحة بقى العمل مطموراً تحت رماد مهيل، ولم يجد صاحبه مثوبة تنتظره، ولا عاقبة تسره..

ويعلمنا الرسول كيف يخسر الإنسان نفسه وعمله إذا ساءت نيته، فيضرب مثلاً بالجهاد وهو من أفضل العبادات وأعظم القربات.

يقول أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه:

«سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء.. أى ذلك فى سبيل الله؟؟..

فقال عليه السلام: من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا، فهو فى سبيل الله»..

ويحدثنا أبو أمامة صاحب رسول الله:

«جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر، ما له؟.. فقال الرسول: لا شىء له ثم قال عليه السلام إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً، وابتغى به وجهه»..

• • •

ونحن نفقد الاخلاص حين يجتالنا الرياء، ونعمل واحدى أعيننا على الله والأخرى على الناس، نلتمس بينهم الجاه وننتظر منهم الثناء الزائف..

والرياء هو التعبير الحقيقى عن حالة فقدان الصدق والاخلاص.. من أجل ذلك يدمدم الرسول عليه ويمحقه، ويرده تراباً في تراب !!..

وحين نعبد الله ـ مثلاً ـ ليقال عنا عابدون..

وحين نخطب ونكتب، ليقول الناس عنا جهابذة..

وحين ننشد المناصب لنزهو بها على الناس ونستعلى..

حين نفعل ذلك وأمثاله معه دون أن نجعل لله النصيب الأوفى، بل الأوحد فى مقاصدنا ونياتنا، فإننا بهذا نعرض أعمالنا للدحض وللبوار..

يجب على المؤمن أن يأتى أعماله، لأنها واجبات يؤديها، وينتظر ثواب الله عليها، وليس لأنها جواز مروره إلى مقاعد الشهرة الكاذبة بين الناس ـ فإن هو استسلم لنوازع الرياء فعليه أن يسمع بل يرى عاقبة الرياء، كما يصورها رسول الله ﷺ.

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال:

• **سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد، فأتى**

به، فعرفه الله نعمته فعرفها. قال الله له فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فى سبيلك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت ليقال هو جرىء، فقد قيل.. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار..

- **ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ــ قال: فما عملت فيها؟.. قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت ولكنك تعلمت ليقال عالم، وقرأت القرآن، ليقال هو قارىء، فقد قيل.. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار..**

- **ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال، فأتى به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟.. قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك.. قال: كذبت، ولكنك فعلت، ليقال هو جواد. فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار..**

فى هذا الحديث الكريم يعبر الرسول ﷺ عن رثائه الشديد للذين يأتون الواجبات والفضائل بنوايا رخيصة ــ أنهم بهذا يلوثون

الفضيلة. فحين توضع الشجاعة، أو يوضع العلم، أو يوضع الجود تعبيراً عن أغراض رخيصة باطلة وزائلة، فإن العمل بها يكون إهانة لها..

والذين يعملون الخير، وشعارهم: انظرونا.. لا يرتفعون وفق معايير الرسول ﷺ إلى مستوى الرشد، ولا ينالهم من عاقبة أعمالهم إلا ما تؤهلهم له نياتهم الهابطة..

وإذا كان الرياء نقيض الاخلاص، فهو إذن الوباء الذى يقتل كل عمل صالح وكل فضيلة.. ومن أجل هذا جعله الرسول ﷺ شركاً.. ذلك أن الإيمان القويم بالله يعنى ألا يرتفع فوق جاه الله جاه، وألا يطلب من غيره ما لا يملكه سواه..

والرياء لا يكون فى العبادة وحدها، بل يعنى كل انحراف فى البواعث الدافعة لكل واجباتنا فى الحياة ــ فكل الواجبات عبادة.

وأنت تذهب ضحية الشرك الخفى كلما مارست واجباتك فى مستوى أهواء الناس، لا فى مستوى الخير العام الذى تحققه هذه الواجبات..

وجدير بك آنئذ أن تلتمس مثوبتك ممن عملت لهم، وليس من الله الذى لم تقنع به معطياً ومثيباً..

لنقرأ قول رسول الله ﷺ:

«إن أخوف ما أخاف عليكم، الشرك الصغر.. قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟.. قال:

الرياء يقول الله عز وجل إذا جزى الناس بأعمالهم ـ اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء» ؟؟..

• • •

اعمل عملك ابتغاء وجه الله وحده، ودع عبير هذا العمل يطلق الألسنة بأطرائك، ويملأ الأفئدة بحبك، ويدل الناس عليك، فآنئذ لا تثريب عليك ولا حرج..

ولكن احذر أن تفعل الخير ـ ولاسيما العبادة ـ رياء وسمعة.. طمعاً وزهواً، فأنك بهذا لاتضيع أجرك فحسب، بل وتلوث الخير أيضاً !!..

إن النيات الفاضلة تمثل كما قلنا استقامة الضمير.. واستقامة الضمير لا تكاد تبين فى شىء كما تبين فى نقاء البواعث التى تحفز فينا إرادة العمل..

وإذا كان الرياء يدفع أعمالنا بعيداً عن المرافىء السعيدة، فإن النفاق هو الافة الأخرى والكبرى التى تطمر تحت رمادها وطينها أعمالنا ونوايانا..

والمنافقون قوم يرصدون رياح المنافع والأهواء قبل أن يبحروا بأطماعهم المتاثة ـ وتجعل منهم أنانيتهم المظلمة والمفرطة قبحاً يكدر جمال الحياة..

وهم ينافقون، لأنهم صغار جبناء، يسترون بالنفاق صغارهم ومسيىء أغراضهم، أو لأنهم ذوو أطماع فاسدة يتوسلون بالنفاق لانجازهم، أو لأنهم امعات وفقاقيع تطفو على السطح البارد. فهم يعبرون بالنفاق عن خوائهم.. لذلك يشن الرسول عليهم حملة قاهرة — ها هو ذا يقول:

«إن شر الناس ذو الوجهين. الذى يأتى هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه»..

ويقول:

«من كان له وجهان فى الدنيا، كان له يوم القيامة لسانان من نار».

ويصور الرسول ﷺ اشمئزازه وازدراءه للمنافق فيقول:

«مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين — تعبر إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة»!!..

إن النفاق لايصدر إلا عن أخس النوايا وأحقر البواعث، وأن الرسول الكريم إذ يدحضه، فلأنه يدرك الاخطار الماحقة التى تنزل بكل جماعة يروج فيها النفاق.. حيث تزاور الحقيقة وتغيب، وحيث يمسى كبت الصدق فضيلة تلك الجماعة، وحيث تفقد جماعة قدرتها على الاحتفاظ بشرف مسئولياتها..

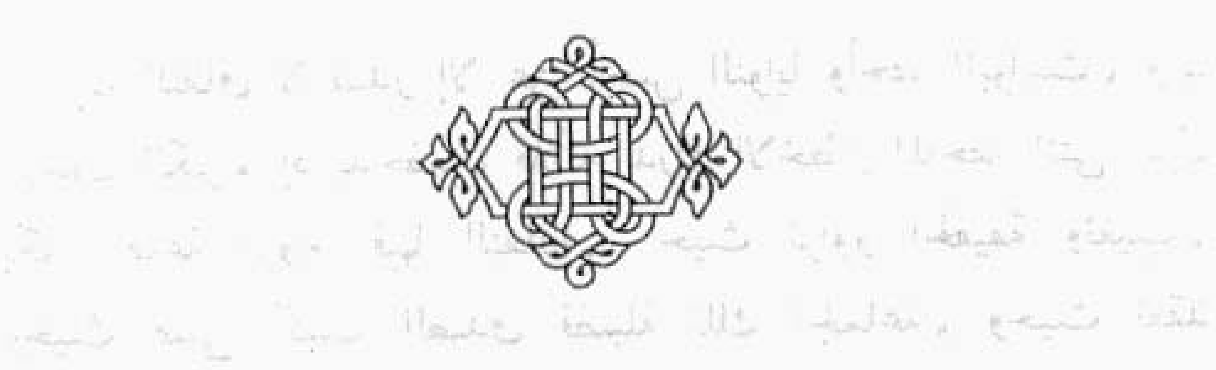
ذلك أن النفاق هو «الابن الشرعى» للكذب وللخيانة.. يقول الرسول عليه السلام:

«آية المنافق ثلاث:
إذا حدث كذب..
وإذا وعد أخلف..
وإذا أؤتمن خان..»

وفى حديث آخر يضيف الرسول ﷺ آفتين أخرتين إلى خصائص المنافق فيقول:

«إذا عاهد غدر.. وإذا خاصم فجر»..

إن على من يريد أن يكون إنساناً شريفاً، ومؤمناً صادقاً، يفتح الله له أبواب فضله ورحمته أن يحمل فى ضميره النقى نيات صالحة، وبواعث فاضلة، وأن يعنى دائماً باستحضار النية الطيبة عند كل عمل يهم به. فعندئذ يكون إنساناً فواح العبير نقى الضمير، ويهيىء الله له مقعد صدق عند مليك مقتدر.



٤

عن جابر بن عبدالله البجلى رضى الله تعالى عنه ، قال :

قال رسول الله ﷺ : « من سن فى الإسلام سنة حسنة ، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء ..

« ومن سن في الإسلام سنة سيئة ، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » ..

(رواه مسلم)

تعود الكثيرون منا عندما يطالعون هذا الحديث أن يقصروه على المدلول الدينى له .. فيرون فى السنة التى يتحدث عنها الحديث « السنة الدينية » أو « السنة العبادية » دون أن ينظروا البعد الدنيوى لهذا الحديث الجليل ..

والحديث فى ظاهره ينبئنا أن من أضاف فى الإسلام إضافة حسنة نافعة كان له من الأجر مثل أجور من يعملون بهذه الإضافة. وبالعكس من أضاف إضافة سيئة كان عليه مثل أوزار الذين يعملون بهذه الإضافة السيئة المنبوذة..

ولكن قول الرسول **«من سن فى الإسلام»** لاينبغى أن يقف بنا عند البعد العبادى للحديث.. وعلينا أن ننظر بعده الآخر حيث الحياة الواسعة العريضة، وحيث يجب على المسلم أن يصونها من كل زيف، وأن تكون إضافاته إليها إضافات حسنة تتيح لأهلها جميعاً المزيد من الهدى والتقى والسعادة والعافية.

• • •

وقول الرسول عليه السلام: **«من سن فى الإسلام»** لايقتصر فى رؤيتنا على المعنى الدينى أو العبادى وحده.. فالإسلام كما نعلم جاء يهدى لخيرى الدنيا والآخرة.. وهو دين ودنيا على أوسع نطاق يفترضه هذا التعبير.. فلا فرق بين أن نقول من سن فى الإسلام وبين أن نقول من سن فى الحياة..

فالذين يحسنون إلى الحياة باضافات خيرة، يحسنون فى نفس الوقت ولنفس السبب إلى الإسلام..

فالإسلام من أكثر الأديان السماوية رعاية للحياة الإنسانية وحضا على الفضائل التى تنمو بها الحياة وتزكو..

ونستطيع — في غير تكلف — أن نرى في هذا الحديث نصا مباشراً في وجوب رعاية فضائل الحياة، ونصاً في التحذير من تحريفها.

وهذا طبيعي من رسول جاء يسمو بالحياة عن طريق دينه العظيم وشرعه القويم..

لقد وجدت الحياة، وجاء الإنسان ضيفها الكبير ليزيدها بهجة وسلاماً، وليس من حقه أن يسيء إليها. بل إن واجبه ألا تظل كما كانت يوم جاءها ووفد عليها. بل لابد أن يضيف إليها الكثير من الفضيلة والخير والجمال.. فهذا هو دوره، ومن أجل ذلك جاء..

وأقل خطأ نقترفه ضد الحياة يعد عند الله وزراً من أكبر الأوزار..

لنقرأ قوله تعالى:

﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾

(سورة المائدة آية: ٣٢).

فالإفساد في الأرض، وتعريض الحياة لما يلحق بها العطب بمثابة قتل البشرية كلها، لأن الحياة الإنسانية ليست ملكاً لفرد، ولا لجيل حتى يمكن أو يسهل العبث بها. بل هي ملك للبشرية جميعاً..

وكل دعم لفضائل الحياة وارباء لها، ليس دعماً لزمان بعينه، أو عصر منفرد بذاته، بل هو دعم لها ما بقيت الأرض والناس فى أماكنهم ..

وفى هذا يتجلى معنى الحديث الكريم :

«من سن سنة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة» ..

«ومن سن سنة سيئة، فعليه وزرها، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» ..

إن مسئولية كل فرد عن الحياة وفضائلها، مسئولية واضحة فى الإسلام ــ وهناك تضامن مفروض على الناس جميعاً يتوسلون به إلى صيانة الحياة وحفظها ــ فمن نكص على عقبيه ادركته لا محالة عقوبة هذا النكوص.

والابرار فى نظر الإسلام هم الذين يجعلون من حياتهم طريقاً عاماً للأجيال، وقدوة صالحة لها.

والأشرار هم الذين يفعلون النقيض، ويسيئون إلى الحياة بتصرفاتهم التى تغرى الآخرين بالسير على منوالهم والتأسى بشرورهم ..

وفى هذا المعنى يطالعنا هذا الحديث الرائع لرسول الله ﷺ :

« ليس من نفس تقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه كان أول من سن القتل » !! ..

انظروا غزارة المعنى وجماله ! ..

إن ابن آدم الأول « قابيل » كان أول من جرح الحياة وأسال دماءها ، حين قتل أخاه « هابيل » .. ومن ثم فإن كل قتل يقع على هذه الأرض إلى أن تفنى الدنيا سيكون عليه كفل ونصيب من وزره الأليم .. لماذا ؟؟ ، لأنه أول من ارتكب هذه الجريمة ضد الحياة ..

• • •

وقول الرسول عليه السلام **« من سن سنة حسنة فله أجرها »** إلى آخر الحديث يشير إلى وجوب تنمية فضائل الحياة ، كما يشير إلى أن تنمية هذه الفضائل جزء هام من عملية رعايتها .. ويقتضى هذا أن تكون هذه التنمية امتداداً لخصائص الفضائل ، لا تحريفاً لها ، ولا انحرافاً بها ..

ولئن كانت فضائل الحياة تصان بالعمل الذى يعطى القدوة ، فإنها كذلك تصان بالقول الذى يحفظ الحرمة ..

فواجب كل مسلم ، أن يدعو إلى احترام فضائل الحياة حتى وإن عجز عن فعلها ..

ومن أجل هذا قال الرسول ﷺ:

«بلغوا عنى ولو آية. فرب مبلغ هو أوعى من سامع ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه» ..

إن العمل بالفضائل يتفاوت قوة وضعفا، اقبالاً واعراضاً، قدرة وعجزاً ــ بين الناس.. لكن الاعتراف بهذه الفضائل واطراءها والحض عليها والتشيع لها يجب أن يجيء بالإجماع، ليبقى للحياة الإنسانية ضميرها وروحها ونورها..

والإنسان الذى يصاحب فضائل الحياة ولو بقلبه دون سلوكه.. أى يحب هذه الفضائل ويتمناها لنفسه بيد أنه يعجز عن فعلها لا يحرم نصيبه من المثوبة..

ذات يوم سأل الرسول ﷺ أحد أصحابه قائلاً:

«يا رسول الله: الرجل يحب القوم، ولا يستطيع أن يعمل عملهم..

فأجابه الرسول: المرء مع من أحب» !!..

فالإنسان مع من أحب، ومع من يحب.. وحبك الخير حتى فى حالات ضعفك يجعل لك فى القافلة المباركة مكاناً.

ويضرب الرسول ﷺ لهذه الحقيقة مثلاً باهراً، فيحدثنا عن جماعة جلسوا فى مسجد يعبدون الله ويذكرونه. وهناك فى أقصى المسجد قعد رجل وحده لم يأخذ مكانه بينهم عابداً وذاكراً..

وتمر ملائكة الرحمة بهذه الجماعة العابدة فتباركها، ثم تلقى نظرة على ذلك الجالس بعيداً. ثم يقول بعض الملائكة لبعض أنكتب لهذا المنفرد مثل أجرهم وثوابهم، ويترددون.. ثم يسئلون الله عز وجل فيقول لهم:

« هم القوم، لا يشقى جليسهم » ..

إنها صورة رائعة باهرة ترينا أن أدنى قرب منا إلى الخير لا يضيع عند الله ثوابه !!..

● ● ●

كان « كونفشيوس » فيلسوف الصين وحكيمها يقول:

« ما أشقى الرجل الذى يملأ بطنه بالطعام طوال اليوم دون أن يجهد عقله فى شىء.. لا يتواضع فى شبابه التواضع الخليق بالأحداث، ولا يفعل فى رجولته شيئاً خليقاً بأن يأخذه عنه غيره، ثم يعيش إلى أرذل العمر.. إن هذا الإنسان وباء » !!..

فالذى لا يفعل شيئا حسنا يكون خليقا بأن يأخذه عنه غيره، إنسان يكون عبئاً على الحياة، وهو أشبه ما يكون بالأعشاب الضارة التى تعتاق نمو النباتات الصالحة !!..

من أجل ذلك، كان رواد البشرية ومصابيحها المضيئة هم أولئك الذين يتركون فى الدنيا عبيرهم وشذاهم.. هم الذين

أضافوا إلى الحياة الكثير من الخير ومن النبل ومن الشرف بما سلكوا من مسلك حميد، وبما بذلوا من تضحيات مجيدة..

إن كل مسلم يقف مع الحق ضد الباطل، ومع الشجاعة ضد الجبن، ومع التقدم ضد التخلف، ومع الصدق ضد الكذب، ومع الحقيقة ضد الزيف، ومع العدل ضد الظلم، ومع قوى الخير ضد قوى الشر والظلام، إنما يضيف إلى الحياة خيراً جزيلا. وإنما يسن فى الإسلام وفى الحياة سنناً مجيدة تجعل مكانه بين الرواد عالياً ومتسامياً !!..

إن من يفعل الخير ويجزى به، يضيف إلى خير الحياة مزيداً..

ومن يقابل الإساءة بالإحسان يضيف إلى إحسان الحياة مزيداً..

ومن يخلص لله قلبه، ويبذل للبشرية من ذات نفسه، فإنه يضيف إلى الإخلاص فى الحياة مزيداً..

ومن لا يقعد عن التضحية براحته وبماله، وبحياته فى سبيل الحق، إنما يضيف إلى رصيد الحياة من شرف التضحية مزيداً..

وهكذا كل خير نفعله، فإنه يكون سنة حسنة، واضافة مجيدة نستحق عليها أجرنا وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة.

لقد قال فيلسوف قديم: «حياتى.. هى صلاتى» !! فجعلك حياتك نموذجاً من نماذج الفضيلة والخير هى سنة تسنها فى

إنه يريد أن يسن للناس أعظم سنن الدين والحياة.. وهو الإسلام، وفى الحياة، إذ تعطى الآخرين مثلاً أعلى يتشبثون به ويعضون على هديه..

وانكار الذات من أجل السنن التى يسنها الإنسان ويزيد منها رصيد الحياة.. فليس هناك أقبح من التبجج والغرور اللذين يجعلان الإنسان عبداً صغيراً لحب الشهرة والتماجد..

وقديماً قيل: «من يطرح المجد، ولا يعبأ به ينج من الأحزان»..

إن كل ما فى الطبيعة من أشياء تعمل وهى صامتة.. وأنها لتوجد، وليس فى حوزتها شىء، وتؤدى واجبها دون أن تكون لها مطالب..

وكل الأشياء على السواء تعمل عملها وتؤدى واجبها ودورها دون أن تزهو وتتعالى وتستكبر. بل دون أن تطلب جزاء أو شكوراً..

فليعمل العاملون فى صمت مثل أمهم الطبيعة.. أما العمل ابتغاء المجد، والطمع، والكبرياء، والشهرة، فعاقبته الخسران!!

إن الرجل العظيم، والمؤمن الصادق يفكران دوماً فيما سيضفونه للحياة من بر وخير.

والرجل العظيم بسيط فى أخلاقه وفى مظهره، لأنه يريد أن يسن للناس سنة التواضع الحميد، ويسن لهم سنة التخلص من الكبرياء والمطامع الكثيرة..

إنه يريد أن يسن للناس أعظم سنن الدين والحياة.. وهو البحث عن كل ما يرفع من أخلاقه، ويزيد من كفايته، ويجعله متفوقاً فى أعماله.. يتحرك بحيث تكون حركاته فى جميع الأجيال طريقاً عاماً، وبحيث يكون سلوكه الفاضل قانوناً عاماً.. ويعمل قبل أن يتكلم، ثم يتكلم بعدئذ وفق ما عمل وما يعمل..

هذه خير سنة يسنها المسلم فى الإسلام وفى الحياة، وخير مثل يتركه للناس..

وبقدر الجهد المبذول فى سبيل الخير العام للناس، تكون السنة الجليلة والمثل المضروب للناس..

يقول الحكيم الصينى «كونفشيوس»، «الناسك الذى يهرب إلى الصومعة، لا يأتى أمراً مذكوراً.. أما ناسك المدينة، فهو الناسك حقاً» !!..

فالعمل الدائب فى أرباء الحياة له روعة آخذة، وجلال عظيم !!..

وهو خير سنة يقدمها المسلم لمن حوله ولمن يجيئون بعده.. ولست أعرف، ولعل غيرى لا يعرف أيضاً أروع ولا أمتع ولا أجم فى هذا المقام من هذا الحديث النبوى الكريم:

«إذا قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة فليغرسها».

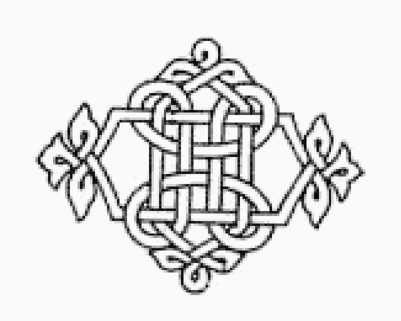
إن الفسيلة هى صغار النخل التى تغرس فى الأرض لتصير فيما بعد نخلا ذات أكمام..

والرسول ﷺ يأمرنا إذا قامت الساعة وأحدنا يتأهب لغرس «فسيلة» فلا تشغلنه أهوال الساعة والقيامة عن غرسها..

أرأيتم أروع من هذا فى الحث على العمل وعلى أرباء الحياة ؟!!..

فلنسن فى الحياة سننا تتمثل فى أرباء حظها من الحق، والخير والجمال..

ولنضف إليها الجديد ــ دوما ــ من أعمالنا الصالحات، ومبتكراتنا الخيرة، فهذا هو طريق الرجال..





٥

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله عز وجل يوم القيامة: «أين، المتحابون لجلالى. اليوم أظلهم فى ظلى، يوم لا ظل إلا ظلى».

(رواه مسلم ومالك)

على رأس فضائل الحياة وشعار الدين، تقف فضيلة الحب..

والحب عندما يتحدث عنه رسول الله ﷺ، ليس الارتباط بغرض زائل أو منفعة رخيصة.. إنما هو الحب الذى يتسامى بنفسه وبالمحبين تسامياً يجعله رفيع المكان فى عالم القربات..

هو الحب من أجل الله، وفى الله.. وحين يتحدث الرسول ﷺ عن الحب، يبدأ بتطهير منابعه، فينحى عنه كل دواعى الوصولية والغرض..

أجل .. فالحب عند رسول الله ليس «اتفاقاً تجارياً» بل هو «ميثاق» علوى متسام بين روحين أفاء الله عليهما من حنانه ورضوانه ..

ولابد للحب كى يصفو ويدوم أن يكون خالصاً، صافياً، نقياً، وبكلمة واحدة أن يكون لله رب العالمين ..

عندئذ .. عندما تحب الناس والأشياء لله، وليس لغرض رخيص زائل تكون قد تحليت بأكرم الفضائل، وأتيت أحب الأعمال إلى الله ..

يقول الرسول عليه السلام :

«أفضل الأعمال الحب فى الله، والبغض فى الله» ..

ويقول أيضاً :

«يقول الله تبارك وتعالى: وجبت محبتى للمتحابين فىّ، والمتجالسين فىّ، والمتزاورين فىّ» ..

ولنتصور كيف يوجب الله على نفسه هذه المثوبة الجليلة .. يوجب على نفسه حب المتحابين فيه ومن أجله .. وفى هذا تكريم للحب فى الله أى تكريم !! ..

بل إن الحب فى الله ليرتفع عند الرسول ﷺ حتى يجعله شرطاً للإيمان ..

يقول عليه السلام :

« والذى نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا » ..

ونحن نعلم أن الصلاة والصيام أجل أركان الإسلام، حتى لقد أخبر الرسول ﷺ أن فرق ما بين الإسلام والكفر الصلاة .. ومع هذا فإن الرسول عليه السلام يرفع إلى مستواهما. بل وفوق مستواهما كل عمل من شأنه أنه يرعرع الحب ويجعل الناس بعضهم لبعض أحباباً واخواناً ..

ها هو ذا يقول :

« ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة ؟ قالوا : بلى يا رسول الله .. قال : اصلاح ذات البين » ..

وكما ينتشر عبير الورود والأزاهير، يريد الرسول ﷺ للحب فى الله أن يملأ الحياة عبيراً وعبقاً !! وهو لهذا يدعو المتحابين أن يعلنوا عن حبهم. ويريد للحب العظيم أن يعلن عن نفسه. وألا يظل مخبوءاً تحت الجوانح ..

يقول عليه السلام :

« إذا أحب أحدكم أخاه، فليخبره أنه يحبه » ..

ويقول :

«إذا آخى الرجل الرجل، فليسأله عن اسمه، واسم أبيه، وممن هو، فإنه أوصل للمودة»..

ويحدثنا أنس بن مالك أنه ذات يوم كان يجلس مع الرسول ﷺ رجل، فمر رجل آخر بمجلس الرسول، فقال الرجل الجالس معه: يا رسول الله: إني أحب هذا.. فسأله الرسول: هل أعلمته أنك تحبه؟ قال: لا.. قال: إذن فأعلمه.. فلحق به وقال له: إني أحبك في الله.. فأجابه الآخر: أحبك الذي أحببتني له!!.. إلى هذا الحد يريد الرسول ﷺ لفضيلة بل لشعرة الحب أن تنتشر وتذيع، وأن يلتقي بها وعليها المؤمنون الذين صفت قلوبهم وتسامت سجاياهم..

• • •

إن الحب أعمق حاجات النفس البشرية، ولا شيء يجعلنا نتغلب على جفاف الحياة وقسوة الظروف مثل الحب ـ أن تكون محباً.. وأن تكون محبوباً..

والحب علاقة يمكن أن ترخص وتتضاءل حتى تسوى بالتراب.. ويمكن أن تسمو وترتفع حتى تعانق النجوم..

ويحدد هذه الرفعة للحب أو هذا السقوط، البواعث التي تحركه..

فالحب الذي تستحثه الدوافع الشريفة الربانية. الحب الذي ينشأ وينمو في رحاب الله، وابتغاء وجهه الكريم هو الحب الذي يحدثنا عنه الرسول.

أما الحب الآخر الذى تحركه دوافع هابطة وأطماع رخيصة فما هو إلا مسخ للحب الصادق الشريف وتزييف له..

لذلك كان جزاء الحب فى الله عظيماً، ومثوبته جزيلة.. وحين نطالع هذا الحديث القادم، لا يسعنا إلا أن نقول: لقد ذهب المحبون فى الله بالأجر كله!!..

ها هو ذا يرويه «عمر» رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ:

«إن من عباد الله أناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى.. قالوا: يا رسول الله تخبرنا من هم؟ قال: هم قوم تحابوا فى الله على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها. فوالله إن وجوههم لنور.. وأنهم لعلى نور.. لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس.. ثم تلا الرسول ﷺ هذه الآية: ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»..

من هؤلاء الذين يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى؟!..

إنهم الذين ارتفعوا بالحب إلى سماواته العلى، ونزهوه عن شهوات الحس وأطماع النفس.. وإنهم الذين تآخوا فى الله، وتحابوا فى الله. لم تجمعهم دنيا، ولم يؤلف بنيهم غرض.. ولأن

الحب أثمن وأسمى ما وهب الله لعباده، ولأنهم ارتفعوا إلى مستواه الربانى بقلوب صافية، وأرواح متفانية، فقد جعل الله مكانهم عنده يوم القيامة مكان المغبوطين.. وممن؟؟ من أرفع الناس درجة وأرسخهم قدماً وأعلاهم شأوا.. من الأنبياء والشهداء!!..

• • •

كان الإمام السرى السقطى رضى الله عنه يقول: «لا تتم المحبة بين اثنين، حتى يقول أحدهما للآخر: يا.. أنا»!!..

فهل نتصور محبة تبلغ هذا المدى الرفيع إلا إذا كانت لله، وفى الله..

فالمحبة لله هى القادرة على بلوغ هذا المستوى من الغيرية الفاضلة.

وهى القادرة على تحمل التضحية من أجل المحبوب..

ويعبر الإمام على كرم الله وجهه عن هذا بقوله:

إن أخاك من كان معك..
ومن يضر نفسه، لينفعك..
ومن إذا ريب زمان صدعك..
شتت فيك شمله، ليجمعك..

هناك فيلسوف كان يقول: «أوثر الذين يجعلون الرذيلة محبوبة، على أولئك الذين يلوثون الفضيلة»!!..

وإذا كان الحب كما قلنا من أجمل وأجل فضائل الحياة، فإن تلويثه يكون بتسخيره لأغراض خبيثة، ونوازع هابطة.. وأنه ليبلغ أوج كماله وغاية جلاله إذا جرده المحبون لله.. إذا تآخوا فى الله، وتوادوا فى الله، وجعلوا الله وجهة حبهم، وقبلة ودهم. وإذا حرروا الحب وطهروه من كل أنانية، ومن كل هبوط.

وحين نولى وجوهنا شطر أصحاب رسول الله ﷺ لنرى كيف كانوا يتحابون فى الله نرى العجب كله، فما كان شىء من أشياء الحياة ولامغنم من مغانمها لينسيهم ولاءهم لهذا الحب العلوى الوثيق.. وأن أحدهم ليخطىء ذات مرة خطأ يسيراً عابراً يتمثل فى كلمة غير جارحة يقولها لأخيه فيضع خده على الأرض ويقسم أنه لن يرفعها حتى يطؤها أخوه بقدمه.

ولقد دربوا حبهم لبعضهم فى حمى حبهم لرسولهم العظيم.. مرن حب المؤمن لأخيه على حب المؤمن لرسوله.. ولقد كان حبهم للرسول يفوق كل تصور ويتعاظم كل وصف!..

أرأيتم هذا الصحابى المصلوب يرفرف الهول فوق رأسه، ويأتيه الموت من كل مكان، ثم يسألونه: أتود لو أن **محمداً** مكانك وأنت سليم معافى؟؟ فيجيبهم فى غبطة القديسين: «والله ما أود أن رسول الله يصاب بشوكة وأنا سليم معافى» !!..

ولقد عبر عن هذا الحب أبو سفيان أيام جاهليته وكفره حين قال لقومه: «والله لقد رأيت الملوك والأقيال، فما رأيت أحد يعظم أحداً كما رأيت أصحاب محمد يعظمون محمداً» !!..

إن هذا التعظيم كان مظهر الحب العلوى الذى منحه المسلمون الأوائل رسولهم الأمين..

من أجل ذلك، فإننا لكى يحب بعضنا بعضاً فى الله تعالى، لابد أن نكون قد مارسنا قبل ذلك حبا عظيماً لله وحباً عظيماً لرسوله..

فأنت لا تحب فى الله مالم تحب الله، وتحب رسول الله.. وحين تملأ نفسك مشاعر الحب لله، تتلوها فوراً مشاعر الحب فى الله، وعندئذ تستطيع أن تقول: أن لك إخواناً فى الله..

• • •

وللحب فى الله مذاق فريد لا يضاهيه أى مذاق. ولقد روى لنا أهل الله طرفاً من أنبائهم، وحدثونا عن الحلاوة. حلاوة الإيمان التى كانوا يجدونها عندما يتحابون فى الله، وحينما تنخرط مشاعرهم وعواطفهم فى صفوف المتحابين لله وفى الله..

والحب فى الله آية على غنم آخر عظيم.. هو آية على أن علائق الحياة الدنيا وشواغلها قد انزاحت بعيداً عن هذا المحب، ومفاتن الدنيا ومعابثها قد ازاورت عنه، بل انهزمت أمام حرارة الحب العلوى الذى حمله المؤمن المحب لأخوانه فى الله، ورفاقه فى الله..

كان أحد الصادقين من أهل الله يقول: «والله إنا لفى لذة، لو علمها الملوك، لقاتلونا عليها بالسيوف»!!..

فما هذه اللذة التى فاقت كل لذائذ الحياة ؟؟ إنها الشعور الصادق بمعية الله .. شعورك بأن الله معك ، وأنك مع الله .. وهذا ما يصنعه بذويه الحب فى الله .. ذلك أن الحب يملأ حياتنا ـــ حب الناس ، وحب الأشياء .. وعلاقاتنا بالناس وبالأشياء تأخذ منا تسعة أعشار وقتنا وعمرنا ، فحين نحرر هذه العلائق من أغراض النفس الباطلة وحين نغرسها فى بستان الله ، وحين نجردها ونحررها مما سوى الله .. عندئذ نكون قد حررنا حياتنا كلها من الأنانية الجائرة ، ونكون قد وضعنا إيماننا فى يمين الله ، وآنئذ يصير من اليسير جداً أن تتحرك مشاعرنا وعواطفنا فى مجال ربانى يحب فى الله ، ويبغض فى الله ، ويرى بنور الله ، ويسمع بسمعه ..

وعندئذ ينال حظه من نداء الله :

« وجبت محبتى للمتحابين فى ..
والمتجالسين فى ..
والمتزاورين فى » ..

وعندئذ يكون قد أدرك أرفع المنازل وأتى أفضل القربات ..

٦

عن ثوبان رضى الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «طوبى للمخلصين. أولئك مصابيح الهدى. تتجلى عنهم كل فتنة ظلماء»..

(رواه البيهقى)

نلتقى الآن مع حضرة الرسول الأعظم ﷺ، وهو يحدثنا عن الاخلاص..

والاخلاص روح العبادة وجوهر الإيمان..

سئل عليه الصلاة والسلام: ما الإيمان فقال: **الإخلاص..**

وهو فى هذا الحديث الذى صدرنا به المقال يزف للمخلصين أعظم البشريات..

ويصفهم بأنهم «**مصابيح الهدى**» وينعتهم بأنهم أئمة الخير وأنهم أصفياء الله وأحباؤه الذين تنجلي وتنزاح عنهم كل فتنة ظلماء نحن البشر نعيش هذه الحياة الدنيا بين شحوبها النائح وفرحها الطروب. وتقلبنا الاقدار فيها ذات اليمين وذات الشمال وطموحنا المسعور باسط ذراعيه بالوصيد !!.. تستحوذ علينا الأغراض والمنافع والأهواء.. ونولد مسلمين، ونعيش مسلمين، بيد أننا نظل أبعد ما نكون عن حقيقة الإسلام الذى هو التسليم..

ولو أن المرسلين جاءوا فقط ليعلمونا بضع طقوس تأتى بها جوارحنا، لهانت اذن رسالاتهم وكانوا كمن يقاتل معركة خاسرة لا رجاء منها ولا انتصار فيها..

ولكنهم فى الحق وبالحق إنما جاءوا ليحدثوا أعظم تغيير فى الحياة الإنسانية عن طريق تغيير وتطوير وتعلية النفس البشرية إلى أعلى مراقى كمالها الميسور.

ولا يتم هذا التغير إلا بارجاع الخلق إلى الرب، وإمداد النفس بالمدد الذى يمنحها السيادة على كل ما حولها والتفوق على ذاتها.. وذلك بأن تعرف حقيقتها، وترتبط أوثق ارتباط بأعظم قوى الوجود وهو الله الكبير المتعال..

وحين ترتبط النفس ببارئها على هذا النمط الرفيع فإنها تكون قد حققت وجودها السامى واخلاصها الكامل، ووجدت متعتها الفريدة ولذتها المثلى التى كان بعض الصالحين يصفونها قائلين: «والله إنا لفى لذة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف» !!..

تلك مزية الاخلاص، وهى مزية ترفع من قدره، وتجعله ضرورة لا دينية فحسب، بل وإنسانية لكل من يريد أن يرتفع بانسانيته ويسمو بها فى معارج الكمال..

والله سبحانه الذى يريد لعباده المؤمنين به رفعة مالها من حدود، يدعوهم عن طريق كتبه ورسله إلى الاخلاص فى عبادته ـ فهذا الاخلاص فضلاً عن أنه يعطى العبادة كمالها، فهو تدريب للنفس على الترفع عن كل الأغراض الدنيوية التى ألفت النفس أن تنخشع لها وتخضع وتبذل ذاتها فى سبيل تحقيقها أو اللحاق بها..

يدعو الله عباده إلى الاخلاص فى العبادة ليكون مسلكهم فيما بعد الاخلاص فى كل الأعمال..

يدعو إلى الاخلاص فى قرآنه، ويدعونا الرسول فى سنته وأقواله..

يقول الحق سبحانه:

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾

[سورة البينة الآية: ٥].

وينادى رسوله بوصفه القدوة العظمى للأمة كلها:

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾

[سورة الزمر الآية: ٢].

ويأمره قائلاً :

﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴾

[سورة الزمر الآية : ١٤] .

كذلك يأمره أن يقول :

﴿ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾

[سورة الأنعام الآية : ١٦٢ ، ١٦٣] .

ففى هذه الآيات المباركات تتجلى مكانة الاخلاص وعظمته . وتتجلى ضرورته لتنال أعمالنا حظها من السمو ومن الثواب.

يقول عليه الصلاة والسلام : **« من فارق الدنيا على الاخلاص لله وحده لا شريك له ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، فارقها والله عنه راض » ..**

ومع الاخلاص يأخذ العمل حظه من القبول ولو كان ضئيلاً ذلك أن الاخلاص بحرارته وبمنزلته عند الله سبحانه يعوض الكثير من الأعمال القليلة .. وهنا نلتقى بالرسول وهو يقول لمعاذ رضى الله عنه قبيل ذهابه إلى اليمن **« أخلص دينك يكفك العمل القليل » ..**

ونلتقى بقول الله سبحانه :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ ﴾

[سورة الملك الآية : ٢] .

قال الفضيل بن عياض فى تفسير قوله تعالى : **« أحسن عملاً »** : إن أحسن الأعمال أخلصها وأصوبها .. قالوا يا أبا على : ما أخلصها وأصوبها ؟ قال إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً وصواباً معاً .. والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على هدى رسول الله .. ثم قرأ قوله تعالى :

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾

[سورة الكهف الآية ١١٠] .

ولقد سئل الرسول عليه السلام عن الرجل يقاتل رياء ، ويقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية أى ذلك فى سبيل الله ؟ . فقال : **« من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله »** ..

كما أخبر عليه السلام عن أول ثلاثة تسعر بهم النار ، وهم قارىء قرآن ، ومجاهد ، ومتصدق . إذا هم قد فعلوا ذلك ليذكروا بين الناس بأفعالهم دون أن يقصدوا بها وجه الله وحده ..

ذلك أن الله أغنى الشركاء عن الشرك. وإذا أتينا أعمالنا الصالحات من أجله ومن أجل الناس قال لنا: اذهبوا بأعمالكم لمن يممتم وجوهكم شطرهم من الناس!!..

وهذا المعنى الدقيق يروى عن حديث لرسول الله يقول فيه: **«إن الله تبارك وتعالى يقول أنا خير شريك. وفى رواية أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن أشرك معى شريكاً فهو لشريكى.. يا أيها الناس. أخلصوا أعمالكم، فإن الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص له.. ولا تقولوا: هذه لله وللرحم، فإنها للرحم وليس لله منها شيء.. ولا تقولوا: هذه لله ولوجوهكم، فإنها لوجوهكم وليس لله منها شيء»..**

إلى هذا المدى تبدو أهمية الاخلاص وحتميته. فكل عمل نقصد به وجه الله ومعه غيره مهما يكن ذلك الغير، فقد خسرناه خسراً مبينا، لأن الله كما يقول الرسول **«لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغى به وجهه»**.. وقديماً قال بعض العارفين: «تعلموا النية، فإنها أبلغ من العمل»..

ونحن ـــ كما ذكرت من قبل ـــ نسعى فى هذه الحياة سعينا الحثيث لكى نعيش ونبقى.. ونتقلب بين أحزانها النائحة وأفراحها الطروب. ومالم نكن يقظين لدوافعنا فإن الغفلة تلقى بنا فى الهوة الفاغرة ونحن لا ندرى!!..

إن عجلات الحياة الهادرة تطحننا فى قوة وبأس . وننسى الله تماماً أو نكاد ننساه فى غمرة السعى وضوضاء الحياة .. ولكن كما يقول الشاعر:

لابــد للـعــاشـق مــن وقــفــة
مــا بين ســلــوان وبين غــرام

فلابد للمسلم من هذه الوقفة المتسائلة دوماً : أيريد الله أم يريد الناس ؟ ..

إنه إذا أراد الناس وقف عندهم فلم يصل إلى الله .. وإذا أراد الله وصل إليه آخذاً الناس فى طريقه ..

وفى الحديث الشريف :

«إن الله إذا أحب عبداً نادى جبريل أنى أحب فلاناً فأحبه .. ثم ينادى جبريل فى أهل السماء والأرض إن الله يحب فلانا ، فأحبوه» ..

فأنت حين تولى وجهك لله فى كل عمل تأتيه تدركك من رحمة الله ومن محبته ما يجعلك بين العباد مرحوماً ومحبوباً ..

ولقد كان السلف الصالح رضى الله عنهم يهتمون أبلغ الاهتمام بتحرير القصد فى كل عمل يأتون . حتى فى الأعمال الدنيوية غير العبادية ، ويستحضر فى خواطرهم أكبر قدر ممكن من النوايا الحسنة المردودة جميعها إلى الله وحده ، وذلك لأنهم كانوا يقودون نضالهم

مع الحياة مدركين رهبة المعركة المحتدمة، ومتوسلين للانتصار فيها بطرح أنفسهم تحت أقدام الله وبين يديه، مخلصين له النية، ومخلصين له القصد ومخلصين له العمل والدين.

وكانوا يتوجسون خيفة من الشرك الخفى الكامن فى كل عمل يراد به مع الله سواه..

إنهم يذكرون مثلاً حديث شداد بن أوس الذى يقول فيه: **«بينما أنا عند رسول الله ﷺ إذ رأيت بوجهه أمراً ساءنى فقلت بأبى أنت وأمى يا رسول الله.. ما الذى أرى بوجهك؟؟. فقال: أمر أتخوفه على أمتى ـ الشرك! قلت أو تشرك أمتك من بعدك؟؟ قال: يا شداد إنهم لا يعبدون شمساً ولا وثناً ولا حجراً. ولكن يراءون الناس بأعمالهم»!!..**

إلى هذا الحد كان الرسول ﷺ يحاذر على أمته من غياب الاخلاص ففى غيابه تتحول الأعمال إلى ايقاعات ذميمة تعزف الوثنية الخفية التى دفع الرسول بها كل رياء يحمل صاحبه على أن يتوجه بأعماله إلى الناس بدل أن يتوجه بها إلى الله ويتبتل إليه تبتيلاً..

إن جميع الأمجاد التى تضفر للمرء الذى يرائى الناس بعمله لا تعد لحظة واحدة من رضوان الله والتسبيح بحمده والتغنى بمجده..

٧

عن أبى فراس ــ رجل من أسلم ــ قال: قال رسول الله ﷺ: «سلونى عما شئتم، فنادى رجل يا رسول الله ما الاسلام؟ قال: إقام الصلاة وإيتاء الزكاة.. قال: فما الإيمان؟ قال: الاخلاص.. قال: فما اليقين؟ قال: التصديق»..

(رواه البيهقى)

لا نزال فى لقائنا مع الرسول وهو يحدثنا عن الاخلاص.. وفى هذه المرة يفسره بالتصديق، أو يضيف إلى حديثه عن الاخلاص حديثه عن التصديق..

وفى الواقع إن الاخلاص والصدق وجهان لعملة واحدة. فأنت بقدر ما تكون صادقاً مع الله.. وكذلك بقدر صدقك يكون إخلاصك..

والصدق والاخلاص من تقوى القلوب.. والقلوب هى موضع نظر الله إلى العبد..

يقول عليه السلام: **«إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسامكم ولكن ينظر إلى قلوبكم».**

وفى حديث قدسى يقول الله عز وجل: **«الاخلاص سر من أسرارى أستودعه قلب من أحب من عبادى»..**

وللسادة العارفين بالله تعريفات كثيرة للاخلاص والصدق فبعضهم يقول: إنها إفراد الحق بالقصد فى الطاعة.. وبعضهم يقول: إنها تصفية الفعل من مشاهدة المخلوقين..

وفريق آخر يعرف الاخلاص بأنه «التوقى من ملاحظة الخلق حتى عن نفسك».. ويعرف الصدق بأنه: التنقى من مطالعة النفس..

ويقولون: إن المخلص لا رياء له. والصادق لا إعجاب له. ولا يتم الاخلاص إلا بالصدق، ولا يتم الصدق إلا بالاخلاص. ولا يتم الاثنان إلا بالصبر..

ويقول بعضهم ــ فيما يرويه عنهم ابن القيم ــ «من شهد فى إخلاصه الاخلاص، إحتاج إخلاصه إلى إخلاص..»

ويقولون: «الاخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق.. ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله..»

ومن كلام «الفضل بن عياض» رضى الله عنه: «ترك العمل من أجل الناس رياء.. والعمل من أجلهم شرك.. والاخلاص أن يعافيك الله منهما»..

• • •

إن الاخلاص قرة أعين الله.. إنه يجعل العبد نظيفاً عطراً. وهو السر العظيم بين العبد وربه ــ لا يعرفه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميل به..

لننظر كم هو عظيم ومتفرد ذلك الإنسان الذى يجتهد ويدأب ويثابر دون أن يطلب على عمله شاهداً غير الله، ولا مكافئا سواه !!..

إن تَعَبُّدَه لله أرسخ من أن يهتز، وهو سائر دائماً وماضٍ فى طريق نموه المتواصل..

ها هو ذا يقرع الباب فيفتح له، لأنه حبيب الله يدعى.. وأنه ليدنو بكل أعماله وخلجات نفسه إلى الفرح السامى مع الله، متجنباً القبح اليومى الذى يدفن الجاهلون أنفسهم تحت رماده بما يبذلون للآخرين من تملق وبما ينتظرونه من ثناء..

إنه فى عبادته يوجه وجهه الذى فطر السماوات والأرض حنيفا مسلماً وهو لا يرى حتى أعماله الصالحة إذ تحجبه عن هذه الرؤية مشاهدته لمنة الله عليه، وتوفيقه له، وإدراكه الوثيق أنه بالله لا بنفسه عمل الصالحات..

إنه يردد أنشودة الأصحاب فى الرعيل الأول :

« والله ، لولا الله ما اهتدينا » ..

« ولا تصدقنا ، ولا صلينا » ..

ان كلتا عينيه على قول الله سبحانه :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾

[سورة النور الآية : ٢١] .

وعلى قوله تعالى :

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾

[سورة الحجرات الآية : ٧] .

فأى فضل له يأتى من طاعة يدل به على الله ، ويرى فيها صولة الطاعة وزهو العبادة ؟! .

إن أذنيه مصغيتان لصوت الوحى وهو يقول للرسول الكريم :

﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾

[سورة الإسراء الآية : ٧٤] .

هذا هو الرسول ، يذكره ربه بأنه لولا تثبيته إياه لكان فى الأمر أمور ..

فكل أعمالنا الصالحات مجرد عطاء الله ونعمته وفضله وبره..

كان بعض السلف يصلي فى اليوم والليلة قدراً كبيراً من الركعات يكاد يقوم الليل كله إلا قليلاً. وكان بين صلواته يمسك بلحيته ويهزها، ويقول لنفسه: «يا مأوى كل سوء. والله ما رضيتك لله طرفة عين»!..

وكانوا يقولون: «من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات فهو مغرور»..

فالمسلم الصالح القانت الأواب، لا يتجنب الادلال بعمله وعبادته فحسب. بل هو يخجل من عمله، لأنه فى نظره لا يصل إلى الكمال الذى يستطيع أن يقول عنه: يارب. هذا العمل هدية إليك..

أولئك الودعاء الكاملون الذين قال الله عنهم وفيهم:

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾

[سورة المؤمنون الآية: ٦٠].

قال الرسول فى تفسير الآية:

«هم الرجال يصومون، ويصلون، ويتصدقون، ويخافون ألا يقبل منهم»..

يقول ابن القيم فى توضيح هذا المعنى: «.. أن تحتمى بنور التوفيق الذى ينور الله به بصيرة العبد، فترى فى ضوء ذلك النور أن عملك من عين جوده.. لا بك، ولا منك»..

والاخلاص لا تضاهيه قوة فى منح النفس حريتها الخلاقة. فهو يعنى أن صاحبه قد حطم قيود عبوديته للناس وللنفس وإذا كان هناك عبودية فهى للخلاق وحده ــ الله رب العالمين !!..

الناس.. ما الناس ؟؟.. إن قلوبهم جميعاً بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف شاء. وهو إذ يثبت العبد على إخلاصه سيجعل ضمن هذه المثوبة أن يسوق أفئدتهم إلى محبته ومهابته وإجلاله..

فمن يلتمس رضا الله بسخط الناس رفعه الله عنده وعند الناس مكاناً عالياً.. ومن التمس سخط الله برضا الناس وكله الله إلى الناس حيث لا يجد منهم إلا نذالة، وسفالة، وجهالة..

رائع هو الاخلاص.. أليس كذلك ؟؟..

يحضرنى فى هذه المناسبة حديث للرسول الأكرم يقول فيه: **«إنما ينصر الله هذه الأمة بضعفائها ــ بدعوتهم، وصلاتهم، واخلاصهم»..**

ليس المراد بالضعف هنا العجز وقلة الحيلة، فقد التقينا فى مقال سابق مع الرسول وهو يقول: **«المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»..**

لكن الحديث يعنى بالضعفاء هنا أولئك الذين وصفهم النبى فى حديث آخر فقال: **«رب أشعث أغبر ذى طمرين مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره» !!..**

أولئك الذين نذروا حياتهم لله، وكرسوا كل نواياهم ومنازلهم لارضائه.. لايبالون بحكم الناس لهم أو عليهم.. كل مايعنيهم أن يسمعوا كلمات الله يوم يلقونه: **لقد رضيت عنكم، فهل رضيتم عني؟؟..**

أجل ــ أولئك الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه..

إن الإنسان يكون أثرى مايكون بالحرية وبالسيادة عندما لايذل للناس من أجل منفعة أو غرض..

ترى هل معنى ذلك أن ينفض الإنسان يديه من الناس ويتخلى عن المجتمع؟؟ إذن فكيف يعيش، ومع من يعيش؟.. إنما الغاية التي نسعى لتوضيحها هي أن يعيش ويحيا ويأتي كل أعماله وعينه على الله لاعلى الناس، لأن المؤمن الصادق الذي جعل شعار حياته وإيمانه «**الله أكبر**» لن يرى في الوجود كله من يمنحه قلبه وصدقه واخلاصه غير الله.. لن يحاني بعمله العبادي والدنيوي أحد سوى الله، لأن الإنسان بطبيعته إنما يتوخى مودة الكبار ورضائهم ــ الكبار الذين يكون لثنائهم وقع، والذين ينفعون ويضرون.. فمن سيد هؤلاء جميعاً. ومن فوق أولئك أجمعين حتى نطمع في قربه ونفعه، ونخاف من بعده وضره؟؟ إنه الله الكبير المتعال..

وهنا يتأكد أن اخلاص العمل له واهداءه إليه وحده ليس عملاً من أعمال التقوى فحسب.. بل هو عمل من أعمال الذكاء

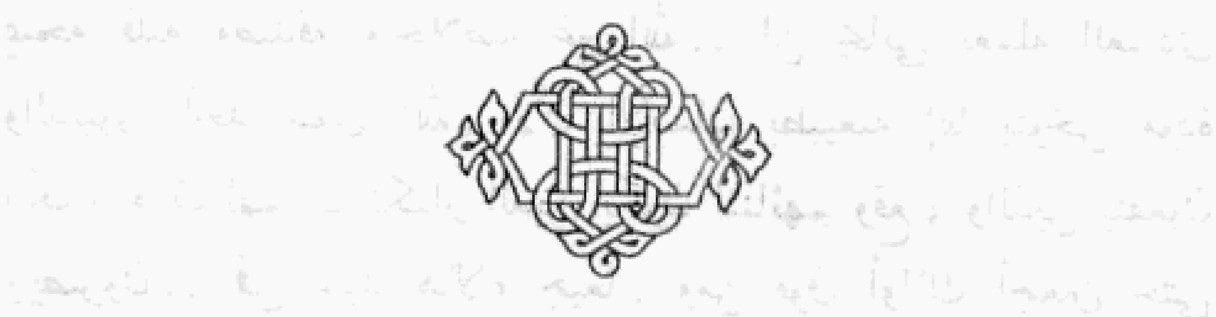
والفطنة والحذق.. قال رجل من الصحابة: يا رسول الله إني أقف الموقف أريد به وجه الله، وأريد أن يرى موطني. فلم يرد عليه الرسول حتى نزلت الآية الكريمة:

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾

[سورة الكهف الآية: ١١٠].

والمؤمن يروض نفسه دائماً على بلوغ أقصى غايات الحرية ببلوغها أقصى غايات الاخلاص..

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم..



٨

عن العرياض بن سارية رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ .. «إنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين.. عضوا عليها بالنواجذ..»
«وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة».

(رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه)

لقد أرسل الله رسله مبشرين ومنذرين. وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط هذه رسالتهم وهذا دورهم.

يقول الله سبحانه:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾

[سورة النساء الآية: ٦٤].

ثم يقول :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾

[سورة النساء الآية : ٦٤] .

فمن أراد الوصول إلى الله عن غير طريق المرسلين، فقط سقط فى التيه وواجه الطوفان ..

ولطالما تحدث الرسول فى هذا المعنى مبشراً ونذيراً ..

فى الحديث موضوع لقائنا اليوم مع الرسول عليه السلام، يخبر أن الأيام الغوابر والليالى المظلمة ستشهد بين المسلمين انحرافات مبهظة واختلافاً كثيراً. اختلاف فى فهم الإسلام وضلال فى تطبيق تعاليمه وتوجيهاته .. بيد أنه يلقى إلى السابحين الذى يجتالهم اليم وتوشك غيابات الموج أن تطويهم وتبتلعهم بطوق النجاة. يتعلقون به ويطوقونه بأذرعهم القوية فيقهرون الموج ويصعدون إلى المرفأ السعيد فى أمان !! ..

وماذا يكون طوق النجاة هذا ؟؟ ..

هو ذا كما تعبر عنه كلماته الوصيئة المضيئة :

« فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهدين. عضوا عليها بالنواجذ. وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة » ..

هذا هو طوق النجاة لمن يريد النجاة.. اتباع الهدى الذى جاء به الرسول من قرآن وسنة، ثم الهدى المتمثل فى اجتهادات خلفائه الراشدين المهديين..

فالقرآن ــ أولاً ــ يهدينا إلى الطريق اللاحب المستقيم إلى الله..

خرج الرسول ذات يوم على أصحابه وهم جلوس فقال لهم: **«ألستم تشهدون ألا إله إلا الله، وأنى رسول الله؟؟ قالوا: بلى، يا رسول الله.. قال: إن هذا القرآن طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم، تمسكوا به، فانكم لن تضلوا، ولن تهلكوا بعده أبداً»..**

فالقرآن. هذا الكتاب الذى جعله الله نوراً وهدى به إلى الصراط المستقيم هو دليل المسلم وقدوته وإمامه..

سئلت عائشة رضى الله عنها عن أخلاق الرسول، فقالت: كان خلقه القرآن..

وهذا الكتاب رافدان عظيمان: سنة رسول الله.. وسنة الخلفاء الراشدين..

ومن رام الوصول بعيداً عن هذا الطريق فقد أدلج فى غير نور..

يقول عليه السلام: «**من أكل طيباً، وعمل فى سنة، وأمن الناس بوائقه دخل الجنة**»..

فالعمل فى سنة هو الطريق إلى رضوان الله وجناته ـ بيد أن ناساً من الناس يظنون أن فى مكنتهم أن يكونوا رسلاً وأنبياء.. فيزيدون فى دين الله ماليس منه، ويصدون عن سبيل الله الحق بما يبتدعون ويدعون.. وكثيراً ما تكون لهؤلاء سطوتهم وكثرتهم فيهيم الناس وراءهم ويلهثون، ويلتبس الحق بالباطل، ويرين على قلوب تابعيهم ما كانوا يكسبون..

من أجل ذلك كان ثواب المقتدين بالقرآن والسنة عظيماً بقدر عظم الجهد الذى بذلوه ليظلوا فى الموكب المحمدى الحق لا يولون عنه ولا يزيغون..

يقول عليه السلام: «**من عمل بسنتى عند فساد أمتى فله أجر شهيد**».. وفى رواية البيهقى «**فله أجر مائة شهيد**» !!..

• • •

إن الرسول أرسل ليطاع ـ فاذا يظن بأنفسهم أولئك الذين يبتدعون فى دينه ماليس منه..

إنهم كما يخبر الرسول وقعوا فريسة للشيطان يزدردهم ويتقيأهم فى سرور عظيم..

فالشيطان فى عصورنا هذه. بل ومنذ أهَلّ «**محمد**» على الدنيا إهلال الشمس فى رائعة النهار، وهو فى يأس ماحق من أن يعبد فى أرض الله. ولكنه سعيد بتحقيق ما دون العبادة بكثير.

يقول نبينا عليه السلام:

«إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم ولكن رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحاقرون من أعمالكم. فاحذروا.. إني قد تركت فيكم ما إن اعصمتم به فلن تضلوا أبداً ـــ كتاب الله وسنة نبيه»..

كل بدعة ضلالة.. هكذا قال الرسول.. ولكن أى البدع يعنى؟ إنه يعنى الابتداع فى الدين بأن نزيد منه ماليس فيه، حتى لو تكون هذه الزيادة بدافع القربى إلى الله..

فالرسول أعلم بهذه الدوافع. ولقد رفض من بعض أصحابه أن ينالوا فى العبادة المشروعة كقيام الليل وصيام النهار. وقال لهم:
«أنا أتقاكم لله وأخشاكم له. ولكنى أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء. فمن رغب عن سنتى فليس منى»..

وفى عصرنا هذا مرورا بالعصور الخوالى ظهرت شراذم من المنتمين للإسلام لم تلبث أن تعاظمت أمواجها وفرقوا دينهم شيعاً. وكان لكل شيعة فلاسفتها ومهندسوها..

وهكذا افترقت الأمة المسلمة كما تنبأ الرسول إلى ثلاث وسبعين فرقة أو تزيد..

وكانت النكبة شديدة، فإن هذا التفرق والتمزق انعكسا على حياة الأمة انعكاساً أدى ــ أولاً ــ إلى نسيان الدين الحق.. وأدى ــ ثانياً ــ إلى ضياع الوحدة وذيوع الفرقة بما يتبع الفرقة من خراب وهوان وخذلان..

ولكي تتوحد الأمة سياسياً، لابد أن تتلاقى فكرياً وعقائدياً وهذا ما جعل الرعيل الأول من المسلمين يفتح أقطار الأرض وبوابات العالم القديم..

• • •

لقد كان أصحاب الرسول يقتدون به في خشوع وتقوى حتى فيما لم يفقهوا حكمته..

هذا «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه يقبل الحجر الأسود، ويقول:

«إني لأعلم إنك حجر لا تنفع ولا تضر. ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك»!!..

إنهم آمنوا به رسولاً من عند الله. وآمنوا بالآية الخاتمة:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾

[سورة المائدة الآية : ٣].

إنهم ليقرأونها فى تقديس، ويتدبرونها فى تقوى.. ومن ثم وأتاهم الإيمان العميق بأنه ليس ثمة فى دين الله نقص عليهم أن يكملوه.. بيد أن هذا لم يمنعهم من أن يجتهدوا ويفسروا دون أن يبتدعوا ويتزيدوا..

لقد سمعوا رسولهم يخطب ذات يوم. وقد احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه منذر جيش يقول: «**صبحكم ومساكم ويقول: أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله.. وخير الهدى هدى محمد.. وشر الأمور محدثاتها.. وكل بدعة ضلالة**»..

سمعوا هذا ووعوه. ولم يتركوا أنفسهم تتوه فى بيداء التفسيرات والتأويلات، لأنهم لم يكن لديهم وقت لهذا.. كان وقتهم كله مدخراً لعبادة الله، ولفتح الدنيا حتى تسمع كلماته وتستظل بالراية التى رفعها «**محمد**» وتركها خفاقة فى جو السماء!!..

إن الذين تجارى بهم الأهواء كما يتجارى مرض الكلب بصاحبه، هم شر ما أصاب الأمة المسلمة من وبال..

فعلى المسلمين أن يلفظوا هؤلاء من بين صفوفهم إذا عجزوا عن تطبيبهم وعلاجهم..

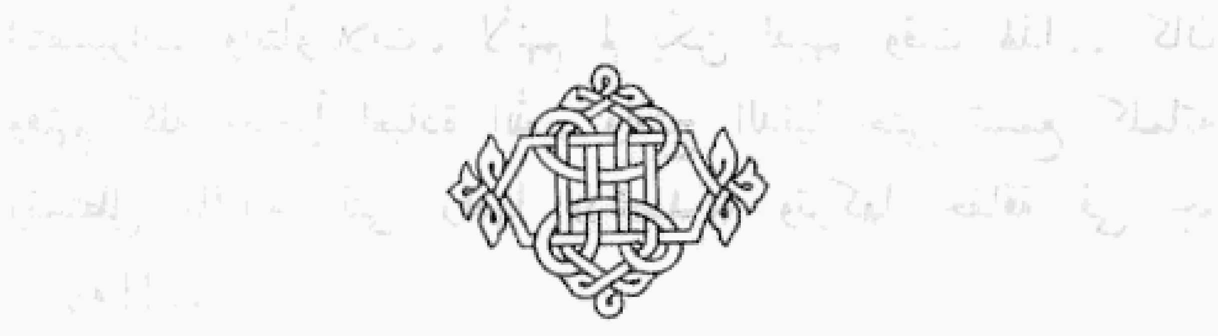
وعليهم أن يعودوا إلى كتاب الله ورافديه العظيمين سنة رسول الله وسنة خلفائه الراشدين..

وعليهم أن يستعيدوا بهذا وحدتهم الفكرية والعقائدية لتتم لهم الوحدة فى كل المجالات الأخرى..

ولا ينبغى أن نفهم من نهى الرسول عن الابتداع ألا نكون مبدعين فى صنع الحياة وبناء الحضارة كما فعل آباء لنا من قبل.

لا.. إن كل ما يمنع التطور الحر لاستعداد أمتنا يجب أن يستبعد تماماً من حياتنا..

ويجب أن نفهم توجيهات الإسلام ونحيا وفق ما فيها من فقه ورشد وحياة ونور..



٩

«عن أبى إمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تحت ظل السماء من إله يعبد أعظم عند الله من هوى متبع» ..

(رواه الطبرانى فى الكبير)

كنت كلما قرأت هذه الآية من القرآن:

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾

[سورة النازعات الآية : ٤٠، ٤١].

أقول: كنت كلما قرأت شعرت برعدة تسرى فى أوصالى، ونشوة تهتز بها روحى وكان أمراً عجيباً أن تجتمع الرعدة والنشوة.

كانت هذه الكلمات الكريمة **«خاف مقام ربه، ونهى النفس عن الهوى»** تنشرنى وتطوينى..

وكنت، ولا أزال أقف طويلاً أمام هذه الكلمات الثلاث **خاف مقام ربه..**

وكنت أتساءل: لماذا قالت الآية **خاف مقام ربه**، ولم تقل خاف ربه..

إنها صياغة بالغة الأحكام من رب عظيم وقدير وحكيم.

ذلك أن المؤمن الصدوق لا يكتفى بالخوف من ربه لكى يزدجر ويرعوى.. بل هو قبل ذلك وفوق ذلك يخاف مقام ربه..

وخوف الرب يعنى الحذر من عقابه وعذابه.. أما خوف مقام الرب فيعنى الحياء منه والخجل من عصيانه..

وخوف المقام أمثل من خوف الذات.. من أجل هذا لم يكتف القرآن وهو يزف البشرى لخائفى المقام بأن يعدهم بجنة واحدة بل وعدهم إمعاناً فى تكريمهم بجنتين.. فقال:

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾

[سورة الرحمن الآية: ٤٦].

وجمع القرآن بين خوف مقام الله، ونهى النفس عن الهوى يبين ارتباطاً وثيقاً بين الأمرين..

فالمؤمن الذى يخاف مقام ربه.. ويغمره الحياء والخجل أمام معصيته لابد أن يكون قد اجتاز مرحلة تمثل فى الانتصار على هواه..

فلا شيء يهدمنا ويردينا مثل الانصياع أمام الأهواء التي تموج بها أنفسنا وينوء بها سلوكنا..

ومن نجا من هواه نجا من كل موبقة ومن كل خطر..

من أجل ذلك يخبرنا الرسول عليه السلام أنه ليس هناك إله يعبد من دون الله أكبر ولا أخطر من هوى الأنفس!!..

وفي نفس المعنى يقول عليه الصلاة والسلام: **«ثلاث مهلكات شح مطاوع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه»**..

فالهوى الذي يخضع أحدنا له ويذل أمامه من أشد المهلكات التي يذوب فيها طهرنا وتتلاشى استقامتنا..

والشيطان أذكى من أن يستدرج المؤمن إلى كبيرة بينة الفحش وهو يستغنى عن هذا باستدراجه إلى الإضاحة لهواه.. عندئذ يتقنصه في سهولة ويسر. ولا يزال يزخرف له الهوى ويزينه حتى يتردى في الهوة الفاغرة ويبتلعه الطوفان..

وإن الرسول ليصور موقف الشيطان هذا فيقول:

«إن إبليس قال، أهلكتكم بالذنوب، فأهلكوني بالاستغفار، فلما رأيت ذلك أهلكتم بالأهواء فهم يحسبون أنهم مهتدون فلا يستغفرون»..

• • •

والنجاة من الهوى تتمثل فى أمرين :

أولهما ـ الاحتكام إلى هدى رسول الله. فهو الفيصل فى كل ما يشغل بال المسلم، وهو النور الذى يبدد الظلمة التى يسرى فيها الهوى فيضل عن سبيل الله..

يقول الله فى قرآنه الكريم :

﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾

[سورة ص الآية : ٢٦].

والحق الذى يذودنا عن الهوى ويذود الهوى عنا متمثل فيما جاء به رسولنا. وفى التزام نهجه القويم على النحو الذى أوجزناه فى مقالنا السابق عن أثر البدعة فى ضياع الإنسان..

يقول عليه السلام : **«لكل عمل شرة ـ أى حرص ونشاط وغواية ـ ولكل شرة فترة. فمن كانت فترته إلى سنتى فقد اهتدى. ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك»** ..

الأمر الثانى : قمع الهوى أولاً بأول، واهاجة القدرة المبدعة والارادة النافذة لاخماد صوت الهوى واحلال صوت الهدى مكانه..

والأمران متواثقان وخليقان بخلق المناخ النفسى الوديع والفاضل الذى يجد المسلم فيه فرصته لاعلاء صوت الحق والفضيلة والجمال والخير، واخماد صوت الباطل والرذيلة والقبح والشر..

ولكى يتحقق الأمر الأول جعل الرسول إحياء سنته ونشرها بين الناس من أهم وظائف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. فإن السنة المحمدية إذا كانت واضحة أمام أناس استطاعوا بلجوئهم إليها أن يميزوا الخبيث من الطيب، والهوى من الحق..

يقول الرسول لصاحبه بلال بن الحارث، وهو فى ذات الوقت حديث لنا: **«اعلم يا بلال إن من أحيا سنة من سنتى أميتت بعدى كان له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً. ومن ابتدع بدعة ضلالة، لا يرضاها الله ورسوله كان عليه مثل آثام من عمل بها. لا ينقص ذلك من أوزار الناس شيئاً»..**

ولكى يتحقق الأمر الثانى لابد أن نصغى لقول الله سبحانه:

﴿ وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾

[سورة العصر].

فالتواصى بالحق والتواصى بالصبر كفيلان باخفاق مسعى النفس فى فرض زيغها وهواها..

والمراد بالصبر هنا ــ الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصيته..

إن أهواءنا قوة رهيبة وجبارة لأنها صادرة عن غرائز باطشة تفرض كلمتها على النفس وعلى الجسد فى عنفوان وضراوة..

ومحاولة قمع هذه الأهواء تعنى السباحة فى بحر هائج ضد موج كاسح وهادر..

لهذا لابد من الحكمة فى خوض هذه المعركة الرهيبة، وإلا وجدنا أنفسنا أمام جيش لجب، وقاهر غاضب ومهتاج لا يعرف أن يضرب، ولا من يضرب !!..

وهذا هو ما جعل الرسول عليه الصلاة والسلام يوصينا بالرفق خاصة فى معالجة النفس قائلاً لنا: **«ما كان الرفق فى شىء إلا زانه، ولا نزع من شىء إلا شانه»**..

وقائلاً لنا: **«يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»**..

ومعلماً إيانا أن هذا الدين متين، وأن السير فيه برفق يصلنا بنهاية الطريق فى راحة وعافية.

وسنفرد لهذا المعنى مقالاً لاحقاً إن شاء الله تعالى. لكننا نكتفى هنا بالقول إن مصادقة الغرائز وكبتها كثيراً ما يوصلنا إلى طريق مسدود، وإلى انحراف غير محمود..

وإذا أردنا أن نهزم دواعى الهوى فى النفس، فالحكمة أولى وسائلنا، لأننا مكونون من غرائز كغريزة الجوع وغريزة الخوف وغريزة الجنس. وهذه الغرائز ترفض أن يكبح جماحها بسهولة.. ترفض الشكائم لا سيما إذا كانت قاسية..

ولقد كان ولايزال من عظمة الإسلام أنه علمنا بقرآنه وبسنة رسوله كيف نتعامل مع هذه الغرائز ونتفاهم ..

إن محقها وإبادتها أمر غير ممكن. وهو فى نفس الوقت ليس من صالحنا. ومحاولة تدميرها يشبه محاولتنا إزهاق الحياة فينا.

من أجل ذلك لم يكن ثمة مفر من استخدام الحكمة فى تجنب شرها قدر المستطاع ..

وسبيل ذلك واضح فى تعاليم ديننا ..

وصدق رسول الله إذ يقول :

«لقد تركتكم على المحجة البيضاء. ليلها كنهارها. لايزيغ عنها إلا هالك» ..

أجل لايزيغ عنها إلا هالك .. ومن التهلكة أن نفقد رشدنا ونهانا ونحن نحاول قمع شرورنا ..

وهناك أناس يعمدون إلى تعذيب أنفسهم، وتحميلها من الأمر مالا تطيق سعياً وراء إخراس صوت الهوى. وكان من الممكن أن يحصلوا على نتائج أفضل لو أنهم استخدموا الرفق والحكمة اللذين يوصينا بهما الإسلام لاسيما فى معركتنا مع النفس وتجاه الخطيئة ..

لقد سئل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن الاستقامة، فقال : أن تستقيم على الأمر والنهى، ولا تروغ روغان الثعالب ..

وهذا حق لا مرية فيه، غير أننا للأسف الكبير مضطرون ونحن نتعامل مع غرائزنا أن نروغ روغان الثعالب، وأن نحاورها ونداورها حتى نحملها فى طواعية على الرضوخ لمشيئة الله وإرادة الخير..

فليصمد القادرون منا على الصمود، وليجاهد القادرون منا على جهاد النفس والهوى..

ولندع الله من كل قلوبنا للذين يخطئهم التوفيق..



١٠

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أو بضع وستون شعبة ـ فأفضلها قول لا إله إلا الله.. وأدناها إماطة الأذى عن الطريق.. والحياء شعبة من الإيمان»..

(رواه البخارى ومسلم)

لانزال فى لقائنا مع الرسول الأعظم وهو يحدثنا عن الحياء ومهما يطل أصغاؤنا لحديث الرسول عنه فسنظل بحاجة إلى المزيد، لأن الحياء قد يبدو خلقاً سهلاً بيد أنه صعب المنال والتحقيق..

وهنا فى هذا الحديث يخبرنا الرسول الكريم أن للإيمان شعباً كثيرة وأن الحياء شعبة من الإيمان..

والله سبحانه يلفت انتباه الإنسان إلى وجوب الحياء منه يقول عز وجل: «**ألم يعلم بأن الله يرى**» وهو عتاب أشد من وخز الابر..

كما يقول : «**يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور**» ثم يقول : «**إن الله كان عليكم رقيباً**»..

والحياء خلق إنساني.. ليس فضيلة لأمة دون أمة.. ولا لقوم دون قوم.. وكل نبى دعى أمته إليه، وحضهم عليه..

يقول عليه السلام : «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت**»..

أى أن الانبياء عليهم السلام قد سفهوا كل من غاب حياؤه وتدنت بهذا مروءته..

وما دام الحياء شعبة من الإيمان فهو إذن خلق كل قلب سليم..

يقول الإمام الجنيد رضى الله عنه: «الحياة رؤية الآلاء. ورؤية التقصير فيتولد بينهما حالة هى الحياء»..

أجل ـ إن رؤية أنعم الله ثم مقارنتها بما نقدمه من حمد وشكر. خير سبيل لاحراز فضيلة الحياء..

ولكننا كما يقول بعض الصالحين ـ نحصى المصائب وننسى النعم !!..

ولا نؤدى لله معشار حقه من الشكر والمحمدة..

• • •

وللقوم تعريفات شتى للحياء :

فيقول ذو النون المصرى :

« الحياء وجود الهيبة فى القلب مع وحشة ما سبق منك إلى ربك ــ والحب ينطق .. والحياء يسكت والخوف يقلق » ..

ويقول السرى السقطى : « إن الحياء والأنس يطرقان القلب ، فإن وجدا فيه الزهد والورع أقاما .. وإلا ارتحلا » !! ..

ويقول الفضيل بن عياض : « خمس من علامات الشقوة ــ القسوة فى القلب ، وجمود العين ، وقلة الحياء ، والرغبة فى الدنيا ، وطول الأمل » ..

ومثوبة الحياء عند الله عظيمة وجليلة ــ وهى جزاء وفاق لمن رأى جلال ربه وخاف مقامه ، واستحيا من عظمته ..

يقول أحد الصالحين : « والله لو لم أطع الله خوفاً من عقابه ، لأطعته حياء منه » ..

فالعبد الذى يعامل الله بكرم النفس هذا ، يلقاه الله بكرمه العميم والعظيم ..

وفى حديث قدسى يقول الحق سبحانه :

« ابن آدم .. إنك ما استحييت منى ، أنسيت الناس عيوبك .. وأنسيت بقاع الأرض ذنوبك ..

ومحوت من أم الكتاب زلاتك.. وإلا ناقشتك الحساب يوم القيامة»..

وفي حديث قدسي آخر يقول: **«ما أنصفني عبدى يدعوني فاستحيي أن أرده.. ويعصيني ولا يستحيي مني»..**

إن العبد إذا استحيى من الله استحيى الله منه..

ومعنى حياء الله، حياء الكرم والبر والجلال والجود. فالله تبارك وتعالى حيي كريم..

يستحيي من عبده إذا رفع يديه أن يردها صفرا.. ويستحيي أن يعذب ذا شيبة شابت في الإسلام..

• • •

ويقسم ابن القيم الحياء إلى عشرة أقسام:

حياء جناية.. وحياء تقصير.. وحياء اجلال.. وحياء كرم.. وحياء حشمة.. والحياء استصغار للنفس.. وحياء محبة.. وحياء عبودية، وحياء شرف وعزة.. وحياء المستحيي من نفسه..

فأما حياء الجناية، فمثاله حياء آدم عندما فر هارباً من الجنة. وقال الله له: أفراراً مني يا آدم؟؟.. قال: بل حياء منك يارب !!..

وأما حياء التقصير، فمثاله حياء الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون. فإذا كان يوم القيامة قالوا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك !!..

وأما حياء الاجلال، فهو حياء المعرفة. وعلى قدر معرفة العبد بربه يكون حياؤه منه..

وأما حياء الكرم، فمثله حياء النبى عليه الصلاة والسلام من القوم الذين دعاهم إلى وليمة «زينب» وأطالوا المكث بعد تناولهم الطعام ومنع الحياء الرسول من أن يقول لهم: «انصرفوا..»

وحياء الحشمة: كحياء على بن أبى طالب رضى الله عنه أن يسأل رسول الله عن المذى لمكان ابنته منه..

وحياء استصغار النفس، كحياء العبد حين يسأل الله حوائجه استصغاراً لشأن نفسه وذاته..

قيل: أن موسى عليه السلام قال: يارب، إنى لتعرض لى الحاجة من الدنيا فاستحى أن أسألك إياها ــ فقال الله تعالى له: **«سلنى حتى ملح عجينك وعلف شاتك» !!**

وأما حياء المحبة، فهو حياء المحب من محبوبه. فحين يستولى على قلبه سلطان الحب، يجد نفسه فى حياء عظيم عظم الشوق إلى محبوبه.

وأما حياء العبودية، فهو مزيج من المحبة والخوف، وعدم رؤيته شيئاً من عبادته.

ذلك أن العبد مهما تعبد والتزم، فإنه لا يرى نفسه أهلاً لهذه العبودية التى لا ينال شرفها إلا أولوا العزم من المرسلين والصديقين..

وأما حياء الشرف، فحياء الأنفس الكريمة الأبية إذا صدر عنها صغار أى صغار.

وأما حياء المرء من نفسه، فهو حياء النفوس الشريفة الغزيرة من رضاها بالنقص وقناعتها بالدون ـ فيجد نفسه مستحيياً من نفسه حتى كأن له نفسين: يستحيي بأحداهما من الأخرى..

يقول ابن القيم: وهذا أكمل مايكون من الحياء، فإن العبد إذا استحيا من نفسه، فهو بأن يستحيي من غيره أجدر..

• • •

وإنما جعل الرسول عليه السلام الحياء شعبة من الإيمان، لأنه كلما قوى الإيمان بالله وبقدرته على أن يسمع كل شيء ويرى، أورث هذا اليقين الحياء من الله فوقى المسلم الكثير من الخطايا والآثام..

إن إيمانك بأن الله ليس منك ببعيد، وأنه مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا. هذا الإيمان يجعلك قرير العين بالطاعة، راعد الفؤاد من المعصية، ويفجر فى نفسك الحياء تفجيراً..

إن إيمانك بأن الله معك حيث تكون، وأنك دائماً تحت أعينه التى لاتغفو ولاتنام يجعلك تنعم بهذه المعية فى مجاليها..

مجال المعية العامة التى هى معية العلم والإحاطة ـــ يقول سبحانه: **« وهو معكم أينما كنتم »..**

ومجال المعية الخاصة، وهى معية القرب. يقول عز وجل: **« إن الله مع الذين اتقوا، والذين هم محسنون ـــ إن الله مع الصابرين ـــ وإن الله لمع المحسنين »..**

ولقد سأل أصحاب الرسول قائلين: أربنا قريب فنناجيه، أم بعيد فنناديه ؟؟..

فأنزل الله الآية الكريمة:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾

[سورة البقرة الآية: ١٨٦].

ويحدثنا أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه فيقول: **« كنا مع النبى ﷺ فى سفر، فارتفعت أصواتنا بالتكبير والتهليل. فقال: يا أيها الناس: اربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً.. إن الذى تدعونه سميع قريب. أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » !!..**

فهذه الحقيقة التى يبلغنا الرسول إياها جديرة بأن تفىء على المسلم كل ما يتطلبه إيمانه من حياء يشد فيه زناد الطاعة إلى أقصاه، ويهيج فيه القدرة المبدعة الخلاقة على أن يصوغ حياته وفق تعاليم الله ومنهجه القويم..

من ذا الذى يؤمن بأن الله يراه. ثم يقترف الخطايا التى زجره عنها ونهاه ؟!..

إنى لأتذكر قصة فيها من الطرافة قدر ما فيها من الدرس والعظة..

تقول القصة: إن شيخا أمر تلاميذه وحوارييه أن يحضر كل منهم دجاجة.. وفى اليوم التالى جاء كل بدجاجته، ووزع الشيخ عليهم المدى والسكاكين ثم أمرهم أن يذهب كل منهم إلى حيث لا يراه أحد فيذبح دجاجته ثم يعود بذبيحته..

وبعد وقت غير طويل عادوا جميعاً ـــ إلا واحداً ـــ يحملون ذبائحهم وسألهم الشيخ: أذبحتم جميعاً فى أمكنة لم يبصركم فيها أحد ؟؟..

قالوا نعم..

ثم وجه السؤال إلى الذى جاء بدجاجته حية صاحية: أنت لماذا لم تذبح دجاجتك ؟؟..

فقال لشيخه: إنك أمرتنى أن أذبح حيث لا يرانى أحد.. وكنت كلما اتجهت لمكان أرى الله يرانى فلم أذبحها !!..

كان الشيخ يؤثر هذا الفتى بحبه، وغار من هذا الإيثار بقية التلاميذ فأراد أن يريهم فضل الفتى عليهم واستحقاقه للمزيد من تكريمه وحبه..

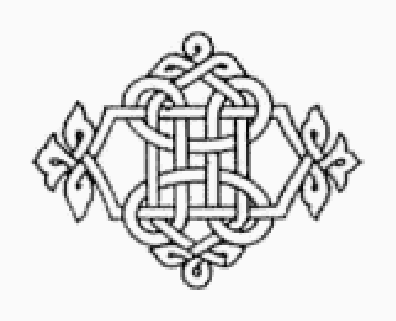
إن الرسول عليه السلام يقول :

«لا يزنى الزانى ـ حين يزنى ـ وهو مؤمن، ولا يسرق السارق ـ حين يسرق ـ وهو مؤمن» ..

أى أن أحدنا لا يأتى الأثام وإيمانه صاح ومسيطر.. وإنما يجترحها فى ساعة يكون إيمانه فيها خافتاً أو مغفياً أو غائباً ..

وكذلك الحياء من الله لا يغيب إلا عندما يغيب الإيمان. ولا يغفو إلا حين يغفو..

وهذا معنى أن الحياء شعبة من الإيمان. بل لعله أجل وأعظم تلك الشعب جميعاً ..





١١

عن ابن عمر رضى الله عنها ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله خلقاً خلقهم لحوائج الناس. يفزع الناس إليهم فى حوائجهم.. أولئك الأمنون من عذاب الله»..

(رواه الطبرانى وابن حبان)

عندما قال الله سبحانه مخاطباً عباده: **«وافعلوا الخير لعلكم تفلحون»** كان يضع أعينهم على خير مراقيهم إلى السمو والكمال..

فلم تحمل الأرض فوق ظهرها أفضل من أولئك الذين يسدون الخير، وينبذون الشر. ويتعبدون إلى الله بما يقدمون للآخرين من عون..

وفى لقائنا هذا مع أكرم الخلق عليه الصلاة وأزكى السلام نتعلم منه قيمة الخير، وعظيم مثوبته عند الله..

والخير بديهة، ،البداهة يصعب تعريفها..

سئل القديس أوغطين عن الزمان فقال: أنا أعرف الزمان مالم أسأل عنه، فإذا سئلت عنه فإنى أجهله تماماً !!..

وهو يشير بذلك إلى أن فى حياتنا أشياء تدركها البديهة، ولا تحتاج فى تعريفها إلى فلسفة ولا سفسطة ولا معاناة..

فإذا سألتنى الآن ـ أيها القارىء ـ ما الخير؟؟ أجيبك من فورى: إنه الخير.. إنه ذلك الذى يجعل الإنسان إنساناً حى القلب، ريان الضمير..

وذلك الذى يجعل منك ملاذاً للآخرين يأوون إليك كما يأوى المحرور إلى ظل شجرة أو كما يأوى الظمآن إلى عين ثرة تفيض بالماء البارد النمير..

هو انعكاس انسانيتك على الآخرين، وإضفاء فضائل نفسك البارة الكريمة على الحياة وعلى الإحياء..

وإن خير ما يصنعه المرء فى حياته هو أن تسع حياته الناس رحمة وبرا، ومحبة ووداً..

• • •

وبقدر ما تكون عند الله عظيما. يكون عظم الحمل الذى تحمله من أعباء الناس.. يقول عليه الصلاة والسلام:

«إن لله أقواماً اختصهم بالنعم لمنافع العباد يقرهم فيها ما بذلوها.. فإذا منعوها نزعها منهم فحولها إلى غيرهم»..

فبقدر ما تحمل من هموم الناس يكون قدرك عند الله. والله لم يجعلك ملاذ لعباده إلا وهو يعلم استحقاقك لهذا الشرف العظيم، ثم هو لا يتركك تحمل العبء وحدك. بل يمدك بقوته، ويساندك بتوفيقه، ويسدد خطاك فى طريق الخير الذى هيأك له، وهيأه لك..

وحين تبرم بهموم الناس وتضجر، يعريك من هذه النعمة ويمنحها لكثيرين آخرين من خلقه لا يبرمون ولا يضجرون..

تحدثنا أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بحديث سمعت النبى يقوله: **«ما عظمت نعمة الله عز وجل على عبد إلا اشتدت إليه حاجة الناس. ومن لم يحمل تلك المؤنة للناس، فقد عرض نعمة الله عليه للزوال»..**

ويفسر هذا القول الكريم عبارة لواحد من كبار الصالحين يقول فيها: «حوائج الناس إليكم نعمة من الله عليكم، فلا تملوها، فتتحول عنكم إلى غيركم»!!..

هذا هو الخير.. أن تكون نداء النجدة للمكروبين، وأن يكون اسمك حين يرن فى اسمك ذوى الحاجة خير عطايا الحياة وهباتها وبشرياتها..

وأنت بنجدتك الآخرين وبمسارعتك إلى فعل الخير إنما تؤمن على حياتك وحياة أهلك وأبنائك فى «مصرف» الله أغنى الأغنياء، وأقوى الأقوياء.

لنصغ إلى قول الرسول: **«المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته. ومن فرّج عن مسلم كربة فرّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»..**

أجل ــ من كان فى حاجة أخيه، كان الله فى حاجته.. ومن أسهم فى رفع مشاق الحياة عن بعض المطحونين فيها وضع الله عنه مشاق الدنيا والآخرة..

والله فى عون العبد مدام العبد فى عون أخيه..

● ● ●

ولقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام خير قدوة فى هذا السبيل، كان يفعل الخير ويبذره فى كل نفس وبين يدى كل محتاج..

كان ينهض لمعاونة ومساعدة كل من يحتاج إلى عون ومساعدة.. وكان عليه الصلاة والسلام يقول:

«لأن أمشى مع أخ فى حاجة، أحب إلى من أن أعتكف فى مسجدى هذا شهراً»!!..

حقاً إنه لرحمة مهداة كما وصف نفسه.. عظيم قد وسعت عظمته كل شيء..

إنسان وسعت إنسانيته كل شيء !!..

يسأل سائل : يا رسول الله : أى الناس أحب إلى الله؟.

فيجيب عليه السلام :

« أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس » ..

ولكي نرى كيف كان رسول الله يحمل هموم الناس وتشغله مشكلاتهم مهما تكن خافية، نطالع هذه القصة :

كان من بين أصحاب النبى صحابى جليل هو عثمان بن مظعون رضى الله عنه..

وكان عثمان متبتلا، غير مشفق على نفسه فى العبادة، حتى لقد هم ذات يوم أن يخصى نفسه ليتخلص نهائياً من نداء غريزة الجنس !!..

وذات يوم عاد الرسول إلى داره فى حجرة «عائشة» فوجد معها بعض النسوة، ووقعت على إحداهن عينه، فألفاها رثة الهيئة، مكتئبة المحيا..

فلما انصرف النسوة سأل الرسول زوجه عائشة عن هذه الكسيرة البائسة، فأخبرته أنها زوجة «عثمان بن مظعون» وأنها تشكو بثها

وحزنها ــ فعثمان مشغول عنها بالعبادة يقوم ليله ويصوم نهاره ولا تظفر منه بحقها كزوجة ..

وخرج الرسول من فوره إلى دار مظعون، وفاجأه بهذا السؤال : **« أما لك بي أسوة » ؟؟**

قال : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، وماذا حدث ؟؟ ..

قال الرسول : **تصوم النهار وتقوم الليل ؟؟ ..**

قال : نعم إنى لأفعل ..

قال له الرسول : **لا تفعل ــ إن لجسدك عليك حقاً ، وإن لأهلك عليك حقا ..**

امتثل « عثمان » أمر الرسول ونصحه ، وقرر أن يؤدى حق أهله عليه والآن ، انظروا بقية القصة ..

ففى صبيحة اليوم التالى ذهبت زوجة عثمان إلى بيت النبى عطرة ، نضرة كأنها عروس !! ..

واجتمع حولها النسوة اللائى كانت تجلس بينهم بالأمس حزينة رثة بائسة ، ورحن يتعجبن من فرط ما طرأ عليها من بهاء وزينة . وقلن لها : ما هذا يا زوجة ابن مظعون ؟؟ ..

فأجابت وهى قريرة العين مجبورة فرحة : أصابنا ما أصاب الناس !! ..

إن موقف ابن مظعون من زوجته مثل فى وعى الرسول الأعظم مشكلة تتطلب حلاً عاجلاً دون أن يسمح لها بالتخفى وراء حياء قد يمنع من مواجهتها..

هنالك لقى الرسول صاحبه، ولوى زمامه عن الخطأ الذى كان يعيش فيه. ورد إلى امرأة تعسة بهجتها وفرحها وحقها لم يستطيع الرسول صبراً حين رأى أمامه زوج يؤرقها هجر زوجها، وتعذيبها مرارة الحرمان فخف لنجدتها وفرج عنها كربها..

فما أن جن عليها الليل ثم طلع عليها صباح يوم بهيج حتى كانت تزهو فرحة مطمئنة وادعة. فتقول لصويحباتها: «أصابنا ما أصاب الناس»!!..

ونعيد تلاوة الحديث الذى صدرنا به هذا الفصل: **«إن لله خلقاً خلقهم لحوائج الناس، يفزع الناس إليهم فى حوائجهم ــ أولئك الآمنون من عذاب الله»..**

إن زكاة الجاه لا تقل شأنا عند الرسول عن زكاة المال والثروة..

والذين يبخلون بجاههم، ويقبضون نفوذهم وجهدهم عن مساندة الآخرين ومساعدتهم ليسوا من الله فى شىء. وما لهم بين الخيرين مكان..

يقول عليه السلام: **«من كان وصلة لأخيه إلى ذى سلطان فى مبلغ بر، أو إدخال سرور، أو تيسير عسير، أعانه الله على**

إجازة الصراط يوم القيامة عند حض الأقدام، ورفعه إلى الدرجات العلى من الجنة»..

إن سيدنا محمد الإنسان البار الرحيم والكريم يزيح جميع العقبات من طريق الناس، ويفتح لمشكلاتهم ومآسيهم جميع الأبواب حتى تلك الأبواب الضخمة المدججة بالحرس والرهبة.. .

وهو يدعوا القوى لنصرة الضعيف، حتى لو تكون هذه النصرة أمام حاكم عنيد..

إن كثيرين من الناس تؤودهم مشكلات الحياة، وتقسو عليهم ويعيشون فى صمت نائح لا يقدرون معه على رفع أصواتهم وابلاغ حاجاتهم، ويحسبون أن الحياة قد نبذتهم ونفضت يديها منهم ووارتهم التراب..

أولئك هم الجديرون بكلمة حب وصيحة أمل وخطوة نجدة..

أولئك الذين ينظرون الخير من الذين أعطاهم الله القدرة على فعل الخير..

• • •

وفاعل الخير الذى يعرف قيمته لا ينتظر عليه أجراً ولا شكوراً.. فالفضيلة مثوبة نفسها.. وأعلى الناس صوتاً فى طلب المثوبة على الخير، هم أكثر الناس جهلاً بقيمة الخير!!..

وحب الخير أنه يتوجك بتاجه فتدعى فى الأرض خيراً وفى السماء عظيماً حسبه أنه هيأك لانقاذ من هم بحاجة إلى انقاذ وحسبه إنه أتاح لك القيام بأفضل الأعمال ..

يقول الرسول عليه السلام : « **أفضل الأعمال إدخال السرور على المسلم . تكسو عورته ، أو تشبع جوعته ، أو تقضى له حاجته** » ..

ويقول أيضاً : « **إن أحب الأعمال إلى الله تعالى بعد الفرائض ، إدخال السرور على المسلم** » ..

وبقدر ما نسدى من الخير، وبقدر ما نعاون الآخرين على احتمال سطوات الحياة، بقدر ما تكون نعمة الله علينا وحفظه لنا وبره بنا ..

وصدق الله العظيم : « **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** » ؟؟ .

فلنصنع الخير ما استطعنا ، ولنبذل للناس مواساتنا وعوننا وعطفنا ..

وليكن « اسمك » نداء النجدة للمكروبين ..

وليكن « قلبك » مرفأ الراحة للمتعبين .

١٢

عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما» ..

(رواه البخارى وأبو داود والترمذى)

ألا ما أبأس اليتم وما أورعه !! هو بؤس لأنه يحرم الطفل وهو لم يزل بعد فى مبتكر حياته ونضارتها من أكبر القلوب حدبا عليه وحنيناً إليه ..

وهو رائع لأن الله الكبير المتعال اختاره لخير خلقه وخاتم رسله ..

فقد جعل الله اليتم له مهداً .. وحين كان أترابه يلوذون بآباء لهم، ويمرحون بين أيديهم كطيور الحديقة، كان هو عليه الصلاة والسلام يقلب وجهه فى السماء ..

لم يقل قط يا أبى، لأنه لم يكن له أب يدعوه..

أى سر فى اليتم حتى يختاره الله لأعظم حاملين لكلمته مبلغين لرسالته ــ المسيح، ومحمد..

أجل ــ المسيح أيضاً كان يتيماً ــ وحين جاء الدنيا لم يجد له أباً.. بل لقد أنبىء أنه لم يكن له من البشر أب على الإطلاق.

وحين كان أترابه كذلك يباهون بآبائهم، ذهب هو يباهى بخير أب..

فيشير بكفه المضيئة إلى فوق ويقول: أبى.. الذى فى السماء!!..

• • •

تلك روعة اليتيم على الرغم من بؤسه..

وروعة كذلك فى أن اليتيم يواجه الحياة وحده مهما يكن حوله من الأهل وذوى القربى.. يختفى من حياته «العائل» ويظهر «الرجل» ويستمد من ذاته أبوة ذاته..

بيد أن اليتم رغم كل شىء بؤس عظيم، فأن يفقد الطفل أباه أو أمه، أو يفقدهما معاً وهو لا يزال غض الاهاب، بعيد الشباب، لين العظام. ثم يفقد معه أو معها أو معهما معاً منبع العطف الثر الذى لا يغيض.. يفقد القلب الكبير الذى يرعاه ويمنحه من حدبه

وحنانه، ويعيش كسير الجناح تعيساً بئيساً. فتلك مذلة ما بعدها مذلة. وحرمان ما مثله حرمان.

من أجل ذلك رأينا رسول الله ﷺ يملأ وصاياه وأحاديثه باحترام حق اليتيم فى العطف وفى الحياة.

يقف بين أصحابه، ويشير بأصبعيه ـ السبابة والوسطى ثم يقول: **«أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين»**.. أى أن كافل اليتيم لا يفصل مكانه فى الجنة عن مكان الرسول إلا مثل ما يفصل بين الإصبعين من مسافة !!..

وفى ذلك تكريم لليتيم أي تكريم..

ويقول: **«من عال ثلاثة من الأيتام كان كمن قام ليله، وصام نهاره، وغدا وراح شاهراً سيفه فى سبيل الله.. وكنت أنا وهو فى الجنة أخوين، كما أن هاتين، أختان. والصق أصبعيه ـ السبابة والوسطى»**..

• • •

ومن عجب أن الأمة الذى هذا رسولها، والتى هذه مكانة اليتيم فيها ـ هى أكثر الأمم هضماً لحق اليتيم وعدم اكتراث بأمره !!..

إن ما تتعرض له الأمة الإسلامية من محن شداد قاسية. تزيد كل يوم بل كل ساعة رصيدها من الأيتام..

والآن، وأنا أخط هذه السطور، ثم وأنت تقرأها تسقط قنابل الموت على الأمنين فى لبنان وأفغانستان، والعراق وإيران..

ووراء كل قنبلة عشرات من الآباء يقضون نحبهم، وعشرات من الأمهات يقتلن.. ثم عشرات أو مئات من الأيتام ــ هذا إذا قدر اليتامى النجاة من القتل والدمار..

وبلادنا أفقر بلاد الله فى المؤسسات التى ترعى اليتيم، وهى إذا وجدت كان عدمها ووجودها سواء.. ففيها من سوء المعاملة ولؤم الطباع ما يذيق الطفل مرارة المذلة والهوان، وينشئه على حقد دفين تجاه بيئته وتجاه مجتمعة، بل وتجاه الحياة كلها والأحياء جميعاً.

وفى هذه المنطقة من الأمة الإسلامية ــ منطقة بلاد العرب يتشامخ الثراء متحدياً أبراج السماء. ثم لا تسمع عن ثرى فاحش الثراء يرعى يتماً أو بضعة أيتام.

إن مكان الأيتام إذا كان لهم أن يوجدوا فى قصور الأثرياء مكان الخدم يغسلون الأطباق ويمسحون البلاط !!..

وفى هذه المنطقة أيضاً لا نسمع أن حكوماتنا وبيوت المال فيها قد نهضت بإنشاء دور للأيتام يأوون إليها ويغبطون عليها.. ولا نسمع والحروب القذرة تلتهم من المسلمين الرجال والآباء أن الدول الثرية الفاحشة الثراء قد تنادت إلى إنشاء «صندوق اليتيم» ترعى فيه بشتى الوسائل المقترحة يتامى الحرب التى لا تؤذن بانتهاء..

أفهذه هي الأمة التي رسولها «**محمد**» ؟؟ ..

أفهذه هي الأمة التي رسولها اليتيم ؟؟ ..

أفهذه هي الأمة التي قال رسولها :

«من عال ثلاثة من الأيتام كان كمن قام ليلة، وصام نهاره، وغدا وراح شاهراً سيفه في سبيل الله، وكنت أنا وهو في الجنة أخوين» ؟!! ..

أم أن حكوماتها وأثرياءها قد أمسوا بتلال الذهب التي يجلسون فوقها في غير حاجة إلى ثواب الصائم القائم المجاهد .. بل وفي غير حاجة إلى أن يكونوا رفاق الرسول في الجنة ؟!! ..

يقول الرسول عليه السلام : «**من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم**» ..

وقضية اليتم في بلادنا قضية مطروحة . بل هي قضية تفرض نفسها على المجتمع العربي والمسلم كله .. ولابد من بحثها ودراستها وإيجاد الحلول لها ..

إن ثريا واحداً من كبار أثريائنا قادر وحده على أن يصنع الشيء الكثير لهذه المشكلة، فكيف إذا إنضاف إليه أثرياء كثر .. بل كيف إذا تبنت القضية حكومات يعييها إحصاء ما عندها من ثروة ومال، وتنوء مفاتح خزائنها بالعصبة أولي القوة من الرجال !! ..

● ● ●

كان الرسول ﷺ وسيبقى عظيما وهو يوصى بالأيتام..

كان وسيظل أستاذاً فى فن الرحمة ومكارم الأخلاق..

يقول عليه السلام: **«خير بيت فى المسلمين، بيت فيه يتيم يحسن إليه.. وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه».**

وهذا الحق، فالإحسان إلى اليتيم إحسان إلى الإنسانية كلها ــ فنحن لا نعرف ماذا داخل إهاب هذا اليتيم..

قد يكون تحت جلده الذى يفريه الصقيع، وداخل إهابه الذى تأنفه وترفضه الجموع.. قد يكون ثمة عبقرى أو بطل ينتظر من يمكنه من النماء والانطلاق..

إن كثيرين من رواد الحياة البشرية نشأوا يتامى أو كاليتامى فى ضآلة فرصهم من الحياة.. بعضهم وجد من يأخذ بيده.. وبعضهم تحدى الحياة بعزمه الجسور. وخلق من ضعفه قوة، ومن ضياعه رجولة واقتحاماً..

فإذا جعل الرسول خير بيت فى المسلمين بيتاً فيه يتيم يحسن إليه، والعكس بالعكس فذلك لأن لليتيم حقاً اجتماعياً ــ هو والحق العائلى سواء ــ فى أن يجد فرصته ليمضى في طريق نموه المتواصل.. ويقرع أبواب الحياة بقوة كى يلج منها إلى قدره المقدور ومستقبله الواعد، ومصيره المغلف بارهاصات طفولته وامكانات رجولته..

ولقد بلغ عطف الرسول على اليتيم أن زين لأمه عدم الزواج بعد أبيه. وذلك كى توفر له من الحنان والحب والجهد ما يعوض عن فقد أبيه حتى يكبر..

يروى أبو داود عن عوف بن مالك الأشجعى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«أنا وامرأة سعفاء الخدين كهاتين يوم القيامة.. امرأة أمت زوجها ذات منصب وجمال، جلست نفسها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا»..**

وآمت زوجها أى صارت إيما.. والأيم هى التى لا زوج لها بكراً كانت أو ثيبا..

والحديث تحية يوجهها الرسول لمن فقدت زوجها ولها منه أطفال يتامى، فرغبت عن الزواج وهى ذات منصب وجمال. وتفرغت ليتاماها حتى يكبروا إن كان فى آجالهم بقية.. أو حتى يموتوا إذا دنت منهم الاجال!!..

ويزيد الرسول عليه الصلاة والسلام المعنى دلالة حين يقول: **«أنا أول من يفتح باب الجنة، إلا أنى أرى امرأة تبادرنى فأقول لها: من أنت ـ فتقول: أنا امرأة قعدت على أيتام لى»!.**

• • •

إن رسول الإنسانية العظيم يدثر ببردة حنانه أولئك الذين فقدوا الحنان مبكرين..

إن رجلاً مسلماً يشكو إليه قسوة قلبه، فيقول: «**امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين..**»

وإنه عليه السلام ليوصى أحد أصحابه: «**أتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك.. امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين**»..

صلوات ربنا وسلامه، وتحياته وبركاته على هذا الرسول الإنسان العظيم..

١٣

عن زيد بن طلحة بن ركانة أن رسول الله ﷺ قال: «إن لكل دين خلقاً، وخلق الإسلام الحياء»..

(رواه مالك وابن ماجة)

إذا كان أول ما يرفع من الأرض الأمانة، فإن ثانى ما يرفع منها الحياء!!..

والحياء فضيلة نفسية، أو قولوا: وظيفة نفسية تؤدى إلى أجمل ما فى الحياة من خلق وتسام وجمال..

وقديماً قيل: إذا لم تستح فاصنع ما شئت. ودلالة هذا الحديث أن الحياء حجاز عن كل ما تقترفه النفس من لامبالاة. وعن كل ما ترتكس فيه من هوان.

ويعرف الرجل الحيى بهذا النور الواضح الطروب الذى يشع من داخله.. وبتلك السكينة المبهجة التى ينزلها الله عليه..

تتمتع شخصيته بعفة عميقة شاملة .. **فهو لا يراه عف الظاهر فحسب .. بل قبل ذلك عف السريرة والباطن والضمير ..**

والمسلم حيي ، لأنه مؤمن ، والحياء كما قال الرسول : **« شعبة من الإيمان » ..**

ذات يوم قال الرسول لعائشة : **« لو كان الحياء رجلاً لكان صالحاً . ولو كان الفحش رجلاً ، لكان رجلاً سوء » !! ..**

وفي الحديث الذى صدرنا به هذا الفصل نجد كم هو عظيم خلق الحياء حتى لقد جعله الرسول خلق الإسلام كله .

ذلك ، لأن الحياء زينة الإنسان . والإنسان بغير حياء لوثة شائهة ، وفظاظة وسفه ..

يقول عليه الصلاة والسلام :

« الحياء من الإيمان . والإيمان فى الجنة ، والبذاء من الجفاء ، والجفاء فى النار » ..

وإنما كان الحياء خلق الإسلام ، لأنه جماع لمكارم الأخلاق . فالمسلم الحيي يمنعه حياؤه من معصية الله ، ويدفعه إلى حسن طاعته وعبادته والحياة التى تغدو وتروح بين أمتثال أمر الله واجتناب نهيه ، تكون قد حققت لصاحبها ولنفسها أعلى مستويات الكمال الميسور لبنى الإنسان ..

ونحن نرى الرجل الحيي من أطهر الناس قلباً ، وأروعهم أداء . يسير ضد التفاهة والشر قدماً ودون ارتعاش ..

ويدوس الكذب والغطرسة تحت أقدامه القوية، ويوجه قواه كلها نحو غرض واحد هو: العدالة!!..

ذلك لأن الحياء يجعل من ذويه وأصحابه رجالاً يعيشون فوق مستوى الضعف الإنسانى.. ومن ثم فهم يحملون تبعات الحياة فى رشد وثبات وشموخ..

والحياء الذى نتحدث عنه الآن ليس خجل العذارى.. وإن كان لخجل العذارى قيمته..

إنما الحياء الذى نتحدث عنه هو تلك القوة النفسية التى تجعل المسلم يتفوق على نفسه وضعفه بترفعه عن كل الصغائر والدنايا. وبتعففه عن كل الآثام والخطايا..

وهو فى النفس المفطورة على الخير جزء من فطرتها لا تكاد تحتاج إلى باعث أو حافز..

لذلك يحدثنا ابن عمر أن رسول الله ﷺ مر على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه فى الحياء. فقال له الرسول: **«دعه، فإن الحياء من الإيمان»..**

أى أن الحياء ليس فى حاجة إلى الحض عليه والدعوة إليه، فهو بعض الإيمان. ولا تجد مؤمناً إلا حييا، ولا منافقاً إلا عديم الحياء..

• • •

والآداب الاجتماعية التى تسود المجتمع كفضائل وأخلاق مظهر لتجليات الحياء..

وإن رعايتها لمسئولية اجتماعية ينظر إليها الإسلام نظرته إلى العبادة وإلى الشعائر الدينية..

والإنسان الذى يجافى هذه الآداب يقترف فى نفس الوقت ولنفس السبب الإساءة إلى دينه وإيمانه..

فالإسلام لم يأت ليعلمنا أخلاق الصوامع.. بل ليعلمنا أخلاق المدينة..

يقول الفيلسوف الصينى «كونفشيوس»: «الناسك الذى يقضى حياته فى صومعة، لا يأتى أمراً مذكوراً.. أما الناسك حقاً، فهو ناسك المدينة» !!..

أجل ــ ذلكم هو الناسك بحق الذى يعيش فى ضوضاء الحياة وصخب العادات، وتباين السلوك، ثم يحتفظ بعذرية روحه وطهرها، وسلامة نفسه واستقامتها..

والحياء كما ذكرنا قوة لا ضعف، ونهوض لا استكانة، وفطرة لا تصنع.. والإنسان الحيى قوى بحيائه كجواد يعدو وسط الغيوم وفوق السحاب..

وهو نظيف وأنيق فى كل ما يأتى من حركة أو قول. تقطر سجاياه رقة وعذوبة وحناناً..

وهو قلما يتعرض لمشاق الحياة ومتاعبها، لأنه ودود، هين، لين، لاتقصفه الريح ولا تقتلعه العواصف..

إن حياءه يذود عنه كل فضول ويدفع عنه كل لغوب..

وصدق رسول الله إذ يقول: **«الحياء لا يأتى إلا بخير»**.

وحين نمعن فى تعرف الحياء، ونتتبع حقيقته في أعماق النفس البشرية. نجده يشكل معظم فضائل بنى الإنسان..

يقول: «قرة بن اياس» ــ كنا مع رسول الله ﷺ فذكر عنده الحياء، فقال بعض أصحابه: يا رسول الله. الحياء من الدين ؟؟ فقال عليه السلام: **«بل هو الدين كله»**..

وفى أحاديث كثيرة للرسول الصادق الأمين يضع الفحش فى مواجهة الحياء مثل قوله عليه السلام: **«ما كان الفحش فى شىء إلا شأنه، وما كان الحياء فى شىء إلا زانه»**..

ذلك أن الحياء أدب، والفحش سوء أدب..

والمسلم الحيى تتسع نفسه وتضىء بشعاع جمال منقطع النظير.. لا يعرف الفحش طريقاً إلى لسانه، ولا إلى الشىء من عاداته وسلوكه وهو ليس سباباً، ولا صخاباً، ولا شتاماً، ولا عياباً..

ثم هو مدثر دائماً بمكارم الأخلاق ومحاسن الصفات.. بينما الآخر الذى نزع حياؤه وتاه منه فى زحام الحياة رجيم ملعن كما قال الرسول فى حديثه الذى يرويه ابن ماجة:

«إن الله عز وجل. إذ أراد أن يهلك عبداً نزع منه الحياء.. فإذا نزع منه الحياء لم تلفه إلا مقيتاً ممقتاً.. فإذا لم تلفه إلا مقيتاً ممقتاً نزعت منه الأمانة، فإذا نزعت منه الأمانة لم تلفه إلا خائناً مخوناً.. فإذا لم تلفه إلا خائناً مخوناً نزعت منه الرحمة، فإذا نزعت منه الرحمة لم تلفه إلا رجيماً ملعناً.. فإذا لم تلفه إلا رجيماً ملعناً نزعت منه ربقة الإسلام»..

ما نظن أن ثمة حديثاً يكشف عن أهمية الحياء وقيمته كما يكشف هذا الحديث.

فالذى يفقد حياءه يمضى فى تتابع محتوم إلى مستوى الذى خلعت عنه أو نزعت منه ربقة الإسلام..

أهناك مصيراً أسوأ من هذا المصير؟!..

إلى هذا المدى جعل الرسول الحياء جماعاً للخير كله. والحياء بهذا التقدير جدير. فهو الذى يحتفظ للإنسان بإنسانيته، وللآدمى بآدميته.

والأمة التى يصبح الحياء بين أفرادها خلقاً عاماً تعيش حياتها سعيدة ممجدة.

ويضيف الرسول للحياء بعداً جديداً حين يقول لأصحابه ذات يوم: **«استحيوا من الله حق الحياء. قالوا: يا رسول الله إنا**

لنستحيي والحمد لله . قال: ليس ذلك .. ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى .. وتحفظ البطن وما حوى .. وتذكر الموت والبلى .. ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا .. فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء » .. فحفظك الرأس وما وعى من فكر وسمع وبصر .. وحفظك البطن وما حوى من قلب وفرج .. وذكرك الموت والبلى ذكراً يطامن من غرورك ويضعك أمام الحقيقة وجهاً لوجه . وإيثارك الآخرة بمتطلباتها على الدنيا بزينتها وفتنتها وإغرائها ..

كل ذلك يشكل عناصر الحياء من الله ، ويكسبك فضيلته ومثوبته ..

• • •

وللحياء وظيفة اجتماعية نادرة ، فإذا هو شاع فى الأمة وذاع ، أكد وجوده المسئولية الاجتماعية وحفظها من الاهمال والضياع .

وترى كل مواطن حريصاً على توكيد هذه المسئولية ودعمها . خجولاً أعظم الخجل من أن يفرط فى حق ، أو يتجنى على حق .. مؤمناً بالحق الاجتماعى إيماناً ينأى به عن كل تجهم له أو إليه ..

وهكذا يجد مواطنوه فى رحابه الأمن والحفظ وقضاء الحاجات .. ويصبح الحيى شرفاً لنفسه وشرفاً لدينه وشرفاً لأمته لا يتخلى عن واجب ، ولا يتعالى على حق ..

تسيطر عليه دائماً عظمة هادئة، ورفعة نفس متواضعة.. يبذل من ذات نفسه كل ما يستطيع وأحياناً فوق ما يستطيع لاخوانه فى الله، واخوانه فى الوطن..

يحترم الفرد فى الجماعة، ويحترم الجماعة فى الفرد.. ويمنعه حياؤه من أن يكذب، أو ينافق، أو يحقد. كما يمنعه من أن يكون حرباً على أحد، أو عدواً لأحد..

وحياؤه لا يمنعه من أن يكون قوياً فى الحق، شديد البأس على الباطل، بل إن ذلك من صميم حياته، لأنه قبل أن يستحيى من الناس قد استحيا من الله..

والحياء من الله يعنى عنده ألا يراه الله حيث نهاه. وألا يفقده حيث أمره.. وتلك هى حقيقة الحياء..



١٤

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل شىء زكاة ــ وزكاة الجسد الصوم، والصيام نصف الصبر»..

(رواه ابن ماجه)

لا نزال ــ قارئى العزيز ــ مع رسول الله ﷺ وهو يحدثنا عن الصوم ومهما يطل وقوفنا مع الرسول بل بين يدى الرسول وهو يتحدث عن عظمة الصيام فلن يفرغ عن الصوم حديثه ولن نشبع من هذا الحديث..

فالحديث عن الصوم ولد شجير مزهر كالربيع، بل قولوا كروح الربيع وهنا يخبرنا عليه السلام أن زكاة الجسد الصوم، وأن الصوم نصف الصبر..

فأما أنه زكاة الجسد، فهذا قول صدق تزكيه علوم الصحة والطب ومن قبل وجود هذه العلوم واتساع مداها كان «ابن

عبد الله » يقول منذ أربعة عشر قرنا : « **اغزوا تغنموا .. وجوعوا تصحوا .. وسافروا تستغنوا** » ..

فالصيام بالمعنى الصحى خير زكاة للجسد ، فهو كما يخلع أحدنا ملابس الخروج التى يضيق بها ، ثم ينشرها فوق المشاجب .

إن الصيام طرح لكثير من الزوائد التى تضنى الجسد . وتصيب كل أعضائه بالإحباط ..

ولقد رأينا الرسول حين أهداه المقوقس طبيباً يرد الطبيب شاكراً . ويقول : « **نحن قوم لا نأكل حتى نجوع .. وإذا أكلنا لا نشبع** » !! ..

حكمة بالغة ورؤية صائبة ..

فإذا لم نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا فلم نشبع كنا فى سياج منيع يصون صحتنا ، وتسلم به أبداننا ..

ولهذا يوصينا الرسول فيقول : « **حسب ابن آدم لقيمات تقمن صلبه .. فإن كان لابد ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه ـ بفتح الفاء** » ..

هذا عن زكاة الجسد بالمعنى الطبى حيث نجد الصوم خير وقاية له وخير علاج ..

بيد أن لزكاة الجسد معنى آخر روحياً ـ فكما قال الرسول : « **على كل سلامى من الناس صدقة** » ..

وأجسادنا الوثيقة المرهفة كحد السيف. والتي كونها الله سبحانه أوثق تكوين وجعلها فى أحسن تقويم، وألهم أعضاءها أداء وظائفها فى دقة بالغة ويقظة رائعة..

هذه الأجساد بأعضائها عليها زكاة تؤديها شكراً لله، وتقديراً لنعمه السابغة وآلائه الكثر..

والرسول ـ عليه السلام ـ يخبرنا أن زكاة الأجساد الصيام.. أليس فضلاً عظيماً أن يكلفنا الله بما فيه خيرنا وعافيتنا، وسعادتنا ثم يثيبنا على ذلك أعظم الثواب ويعد لنا جنات عرضها السماوات والأرض؟؟..

إن الله لن ينال من صيامنا شيئاً ـ **«لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم»..**

والأمر كما يقول سبحانه فى حديث قدسى: **«يا عبادى. لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئاً.. ولو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر»..**

إن الله إذن لا يدعونا لما يعود عليه بالنفع، ولا بما يزيد قدره ويزيد ملكه اتساعاً..

إنما يدعونا لما يجعلنا نحن بلذة الانتصار على نفوسنا، وضعفنا.. يدعونا لما يزيد أرواحنا ثراء، ونفوسنا عطاء، ويدعونا لما يباعدنا عن الذين يقولون حين تفجأهم الساعة ياليتنا نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل.. **«قد خسروا أنفسهم، وضل عنهم ما كانوا يفترون» !!..**

وفى شهر الصيام بالذات يدعونا إلى أن نصبر عن معصيته. ونصبر على طاعته، ولا نقضى أيامه نياماً، ولياليه سكارى أو نشاوى..

نقول مع الشاعر:

وضربنا الحديث ظهراً لبطن ــ وأتينا من أمرنا ما اشتهينا.

• • •

يقول عليه السلام: **والصيام نصف الصبر..**

والرسول الكريم يخبرنا أن الإيمان نصفان ــ نصف صبر.. ونصف شكر.. فكأن الصوم وحدة يشكل ربع الإيمان..

وإذا كان الصوم يظفرنا بنصف الصبر، فأن غنيمتنا إذن لعظيمة..

فلقد ذكر الله الصبر فى تسعين موضعاً من قرآنه العظيم:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾

[سورة البقرة الآية : ١٥٣].

﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾

[سورة النحل الآية : ١٢٧] .

﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾

[سورة البقرة الآية : ١٧٧] .

وآيات كثيرة تبلغ كما قلنا التسعين آية ، كلها تمجد الصبر، وتحض عليه ، وتدعو إليه ..

والصبر ـــ يتطلب صبراً على طاعة الله ، وصبراً عن معصية الله ، وصبراً على امتحان الله ..

كان ابن تيمية رضى الله عنه يقول : « الصبر على أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات ، فإن مصلحة فعل الطاعة أحب إلى المشرع من مصلحة ترك المعصية . ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية » .

وقد يسمح شيخ الإسلام بأن نخالفه قليلاً من المخالفة ، فإن الصبر عن المعصية التى هى غذاء النفس وهواها يتطلب من الجسارة والمعاناة والمحاولة مالا يتطلبه الصبر على فعل الطاعة ..

وعلى أية حال ، فليس الآن مجال حديثنا عن الصبر فله إن شاء الله موعد منا قريب ..

إنما نريد أن نتمعن العظمة الكامنة فى الصوم حين يجعله الرسول عليه الصلاة والسلام نصف الصبر..

ترى هل من الصعب علينا أن ندرك لماذا كان نصف الصبر؟؟.. لا أظن..

وهو ليس نصف الصبر لما يتطلبه من صبر على الجوع والظمأ فحسب.. بل هو نصف الصبر لما يتطلبه من ضبط شديد ووثيق للنفس، بل ولجوارح الجسم كلها..

فالصائم ليس مطالباً بالإمساك عن الطعام والشراب فحسب.

بل هو مطالب بحفظ جوارحه وخطرات نفسه من كل ما يمت إلى الخطيئة بسبب..

يقول الشاعر العربى فى هذا المقام:

إذا لم يكن فى السمع منى تصامم
وفى مقلتى غض وفى منطقى صمت
فحظى إذن من صومى الجوع والظمأ
وإن قلت أنى صمت يوماً فما صمت

وهو يستمد هذا المعنى من قول الرسول الأكرم: «**رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والظمأ.. ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر**»..

وبهذا الصبر عن المخالفات فى أيام الصيام يحقق الإنسان المسلم لنفسه ربحاً جزيلاً من مغفرة الله وشكرانه ورضوانه..

أما إذا عجز أو استسلم للعجز عن إثراء الصوم بكل حاجاته من العبودية الصادقة والصبر الجميل، فإن هذا الحديث لرسول الله ينتظره ويبشره بسوء مآب..

فذات يوم والرسول فوق منبره، قطع حديثه وقال: **«آمين.. آمين.. آمين.. ثم قال: أتاني جبريل عليه السلام فقال: يا محمد. من أدرك رمضان فلم يغفر له، فأبعده الله.. قل: آمين. فقلت: آمين.. قال ومن أدرك والديه أو أحدهما فدخل النار، فأبعده الله. قل: آمين.. فقلت: آمين.. قال: ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك، فأبعده الله. قل: آمين.. فقلت: آمين»..**

إن المفروض ألا يغادر المسلم الصادق شهر رمضان إلا وقد غفر له. أى أدى صيامه على الوجه الذى يستحق به المغفرة.. فإذا انقضى رمضان وهناك مسلم لم ينل من مغفرة الله مثالاً. إما لأنه لم يصم أبداً.. وإما لأنه صام صوماً ناقصاً ومبتوراً فقد استحق البعد عن رحمة الله والطرد من رحابه..

أما الذين يصومون عن الطعام والشراب، ويصومون فى نفس الوقت عن كل موبقة وسيئة، ويصونون حتى خطرات أنفسهم عن فحش التفكير وسيئه فأولئك ينتظرهم حديث للرسول عظيم..

والحديث يرويه الصحابى الجليل «جابر بن عبد الله» رضى الله عنهما، يقول: قال رسول الله ﷺ: **«أعطيت أمتى فى شهر**

رمضان خمساً لم يعطهن نبى قبلى .. أما واحدة، فإنه إذا كان أول ليلة من شهر رمضان نظر الله عز وجل إليهم . ومن نظر الله إليه لم يعذبه أبداً» ..

«وأما الثانية فإن خلوف أفواههم حين يمسون أطيب عند الله من ريح المسك» ..

«وأما الثالثة، فإن الملائكة تستغفر لهم فى كل يوم وليلة» ..

«وأما الرابعة، فإن الله يأمر جنته فيقول لها: استعدى وتزينى لعبادى يوشك أن يستريحوا من تعب الدنيا إلى دار كرامتى» ..

«وأما الخامسة، فإذا كان آخر ليلة من رمضان غفر الله لهم جميعاً» ..

«فقال رجل من القوم: أهى ليلة القدر يا رسول الله ؟؟

قال الرسول: لا: ألم تر إلى العمال يعملون، فإذا فرغوا من أعمالهم وفوا أجورهم» ..

هذا حديث مضى «ووضى» فليكتب الله لنا من مغفرته ورحمته وقبوله وسبحانه ذى الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة ..

١٥

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: يقول «الله عز وجل: «كل عمل ابن آدم له، إلا الصوم فإنه لى، وأنا أجزى به»..

(رواه البخارى ومسلم)

لا نزال فى لقائنا مع الرسول وهو يحدثنا عن جلال الصوم، وروعة ثوابه..

وهذا الحديث الذى نصدر به المقال ممعن فى الغرابة والعجب إمعانه فى بعث البشرى وبث الأمل..

فالحديث يرويه الرسول عن ربه، والرب سبحانه يقول: «**كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به**»..

ما أروع عبادة الصوم بين العبادات، وما أعظم بشراه بين كل البشريات!!..

الصوم لله .. وكل ما يعمل ابن آدم فهو له !! ..

كيف ؟.. ولمن إذن الصلاة والزكاة والحج وبقية الفرائض والنوافل من العبادات ؟؟..

قال الإمام النووى رضى الله عنه : «اختلف العلماء فى معنى الحديث مع كون الطاعات كلها لله .. فقيل : إضافته إلى الله تعالى أنه لم يعبد أحد غير الله به . فلم يعظم الكفار فى عصر من العصور معبوداً لهم بالصيام . وإن كانوا يعظمونه بصورة الصلاة والسجود والصدقة والذكر وغير ذلك .. وقيل : لأن الصوم بعيد من الرياء لخفائه بخلاف الصلاة والحج والصدقة وغيرها من العبادات الظاهرة .. وقيل : لأنه ليس للصائم ونفسه فيه حظ .. وقيل إن الاستغناء عن الطعام والشراب من صفات الله تعالى ، فتقرب الصائم بما يتعلق بهذه الصفة عمل عظيم ، وإن كانت صفات الله تعالى لا يشبهها شىء » وقيل ، إلى آخر الذى قيل ..

وأياما تكن التفسيرات فالنص هنا ، الصادر عن الله أعظم وأبلغ من كل تفسير..

حسب الصوم أن الله سبحانه وتعالى وضعه تجاه العبادات جميعها ثم قال : هذه العبادات للعبد ، أما الصوم فدعوه لى !! ..

حسبه أنه أخفى ثوابه لعظمته ولكرامته عنده ..

حسبه أنه لم يجعله والعبادات كفرس رهان . بل احتضنه سبحانه ، واختصه لنفسه وقال له : إنك بأعيننا ..

حسبه حين يقول سبحانه: **«وأنا أجزى به»** أنه بشر بعظم الجزاء وسعة العطاء..

أنظروا ما فى قوله **«فإنه لى»** من تأنق وتألق.. إن أكثر الأقلام ذكاء وعطاء ليقف ثملاً وصامتاً أمام هاتين الكلمتين القصيرتين **«فإنه لى»!!..**

● ● ●

أيمكن أن نجد إنساناً عنده مسحة من العقل يدع هذه الفرصة تفلت منه، والرسول يخبرنا أننا لو نعلم ما فى رمضان من البركة والخير لتمنينا أن يكون السنة كلها ؟!..

إنه فى رواية أخرى من الحديث يعلل الله سبحانه عطاءه المفرق وثوابه المفيض على الصائم قائلاً: **«يدع شهوته وطعامه من أجلى»..**

إن هذه الكلمات لتشعرنا وكأن الله يفخر بعبده الصائم.. عبده الذى يدع طعامه وشرابه وشهرته من أجل الله!!..

هؤلاء الذين آمنوا بالله ورسوله، وصدقوه فيما بلغ عن ربه، ونهضوا قياماً ممتثلين أمره مؤمنين بوعده..

ويحدثنا عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة.. يقول الصيام: أى رب، منعته الطعام والشهوة، فشفعنى فيه..**

ويقول القرآن: منعته النوم بالليل، فشفعنى فيه، فيشفعان» ..

لقد كان بعض أصحاب الرسول يتوصون اليوم الشديد الحر الذى يكاد الإنسان ينسلخ فيه حراً فيصومونه، لأنهم يريدون أن يكون حظهم عند الله أوفى، وفخره بهم أبهى ..

حين ينظر إليهم وهم يلهثون من الظمأ ويعانون من الجوع فى اليوم الصائف القائظ ويقول مباهياً بهم ملائكته: **أنظروا عبادى .. تركوا طعامهم وشرابهم من أجلى !! ..**

ولقد كان الرسول يقدس عبادة الصوم .. ولو تتبعنا أحاديثه عن الصيام لخرجنا بنتيجة صادقة هى: أن الصوم يسمو على العبادات، ويفوقها ذكراً، ويفوقها أجراً ..

لقد سأله صاحبه «أبو إمامة» ذات يوم فقال: يا رسول الله مرنى بعمل ينفعنى الله به ..

فأجابه الرسول: **عليك بالصوم، فإنه لا عدل له ..** وعاد أبو إمامة يسأل نفس السؤال، والرسول يقول له: **عليك بالصوم، فإنه لا عدل له ..** ومرة ثالثة ألقى أبو إمامة سؤاله وللمرة الثالثة يجيبه الرسول: **عليك بالصوم فإنه لا مثيل له !! .**

ويروى البخارى ومسلم عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من عبد يصوم يوماً فى سبيل الله تعالى إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفاً» ..**

ماذا ؟!!.. إن المرء ليذهل وهو يطالع أحاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام عن الصيام وعما أعده الله للصائمين من أجر أخفاه لتكون مفاجأة الله السعيدة للصائمين !!.

من أجل ذلك جعل الرسول مواسم الصوم طوال العام كثيرة واختار من أيام السنة أياماً حث على صومها..

فهناك مثلاً الستة من شوال..

يقول عليه السلام **«من صام رمضان ثم أتبعه بستة من شوال ــ ليس منها يوم العيد ــ كان كصيام الدهر»**..

وهناك يوم عرفة لمن لم يكن حاجاً إذ يقول عليه الصلاة والسلام فى صومه: **«صيام يوم عرفة يكفر السنة الماضية والباقية»**..

وتقول السيدة عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يعدل يوم عرفة بألف يوم..

وهناك شهر الله المحرم. يقول الرسول عليه السلام حاثاً على صيامه: **«أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة قيام الليل»**..

وهناك يوم عاشوراء، يقول الرسول عن صيامه: **«صيام يوم عاشوراء يكفر السنة الماضية»**..

وهناك شهر شعبان حيث يحدثنا أسامة بن زيد رضى الله عنهما فيقول: «قلت يا رسول الله. لم أرك تصوم من شهر من الشهور من شعبان ـ إشارة إلى أن الرسول لم يكن يصومه كله ـ بل كان يصوم كثيراً من أيامه.. فأجابه الرسول عليه السلام قائلاً: **«ذاك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان، وهو شهر ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين، وأحب أن يرفع عملى وأنا صائم»..**

ويصور حب رسول الله للصوم قول أم المؤمنين عائشة:

«كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: لا يفطر.. ويفطر حتى نقول: لا يصوم.. وما استكمل صيام شهر قط إلا شهر رمضان»..

وهناك كذلك صيام ثلاثة أيام من كل شهر. يقول عليه الصلاة والسلام: **«أوصانى خليلى ـ يعنى جبريل عليه السلام ـ بثلاث: صيام ثلاثة أيام من كل شهر.. وركعتى الضحى.. وأن أوتر قبل أن أنام»..**

ولقد سألته «ميمونة بنت سعد» فقالت: يا رسول الله أفتنا عن الصوم.. فقال: **«من كل شهر ثلاثة أيام. من استطاع أن يصومهن، فإن كل يوم يكفر عشر سيئات، وينقى من الاثم كما ينقى الماء الثوب»..**

وقال لأبى ذر: **«من صام من كل شهر ثلاثة أيام فذاك صيام الدهر»** ــ قال أبو ذر فأنزل الله تصديق ذلك فى كتابه ــ من جاء بالحسنة ، فله عشر أمثالها ــ اليوم بعشرة أيام..

وهناك يوم الاثنين والخميس ، يجعل الرسول صيامهما طاعة وقربى ، فيقول عليه السلام حين سئل عن صيامه لهما : **«إن يوم الاثنين والخميس يغفر الله فيهما لكل مسلم إلا لمهتجرين ــ أى متخاصمين ــ فإنه يقول ادعهما حتى يصطلحا»..**

• • •

علام تدل هذه الحفاوة بالصوم ؟.. وعلام تدل رغبة الرسول فى أن يستكثر المسلم من الصيام ؟..

إنها تدل على شىء واحد هو أن الصوم سيد العبادات وسيد القربات ولكن ، على الرغم من إيثار الرسول للصوم على النحو الذى رأينا ، فإنه يرفض تماماً أن يبالغ أحد فى الصوم مبالغة تؤثر على صحته وكيانه .

من أجل ذلك حرم صيام الدهر، وقال لعبد الله بن عمرو بن العاص عندما علم أنه يصوم الدهر كله : **«لا تفعل ، فإن لجسدك عليك حقا ، ولزوجك عليك حقا .. صم من كل شهر ثلاثة أيام فذلك صوم الدهر»..**

كذلك نهى الزوجة أن تصوم صيام تطوع إلا بأذن زوجها ؟؟..

فقال: «لايحل لامرأة أن تصوم وزوجها حاضر إلا بإذنه».

كما نهى المسافر عن الصوم واعتبره عاصياً إذا فعل.. وقال: «ليس من البر الصيام فى السفر»..

دين لاعوج فيه.. وشريعة مقتصرة، لا إفراط فيها ولاتفريط.. ورسول «من أنفسكم، عزيز عليه ماعنتم، حريص عليكم، بالمؤمنين رءوف رحيم»..

• • •

١٦

عن سلمان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم مبارك.. شهر فيه ليلة خير من ألف شهر.. شهر أوله رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار».

(رواه ابن خزيمة والبيهقى)

لا نزال مع الرسول الأعظم، وهو يحدثنا عن الصوم، وعن رمضان..

والحديث الذى أمامنا الآن جزء من خطبة يقول «سلمان الفارسى» رضى الله عنه: أن رسول الله خطبها فيهم..

والخطبة باهرة ورائعة. ومن حقها علينا أن نسوقها كما يرويها «سلمان» يقول: خطبنا رسول الله ﷺ فى آخر يوم من شعبان فقال: **«يا أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم مبارك، شهر فيه**

ليلة خير من ألف شهر.. شهر جعل الله صيامه فريضة، وقيام ليله تطوعاً.. من تقرب بخصلة من الخير، كان كمن أدى فريضة فيما سواه.. ومن أدى فريضة فيه، كان كمن أدى سبعين فريضة فيها سواه.. وهو شهر الصبر.. والصبر ثوابه الجنة.. وشهر المواساة.. وشهر يزاد في رزق المؤمن فيه.. من فطر فيه صائماً كان مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء..

قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين: يا رسول الله، ليس كلنا يجد مايفطر الصائم ــ فقال عليه السلام: يعطي الله هذا الأجر من فطر صائماً على تمرة، أو على شربة ماء، أو مذقة لبن.. وهو شهر أوله رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار»..

ونكتفي بهذا القدر من هذه الخطبة القيمة التي استقبل بها الرسول الكريم شهر رمضان دالاً على فضله، حاثاً على تكريمه..

وفي هذه الخطبة نرى الرسول عليه السلام يحيي مروءة الرجال الذين يبسطون أيديهم بالخير والبر والمعروف في هذا الشهر العظيم. حتى إنه ليعد بالثواب الجزيل والجليل من يفطر صائماً على ثمرة.. أو شربة ماء، أو مذقة لبن !!..

• • •

إن الرسول ﷺ يريد لهذا الشهر أن يكون خيراً كله، وأن يكون وارف الظلال على جميع المسلمين ــ غنيهم وفقيرهم..

ويخبرنا الحديث الشريف أنه إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار. وصفدت الشياطين، وينادى عبر أيامه ولياليه مناد يقول: يا باغى الخير أقبل، ويا باغى الشر أقصر..

وعلى الرغم من أنه شهر صيام وبر، فإننا نحن المسلمين، نجعله موسماً لموائد التخمة والشبع نتباهى ونتبذخ، ونتبادل الدعوة إلى الولائم الفاخرة التى لا تجد عليها فقيراً واحداً، ويأكل أحدنا فى وجبة الافطار أكثر مما يأكله فى الوجبات الثلاثة، وتسود رذيلة الرياء والسمنة، ويصير أحدنا كما يقول «شميط بن عجلان» رضى الله عنه: «.. دائم البطنة، قليل الفطنة.. يقول: متى أمسى فآكل وأشرب، وألهو وألعب.. جيفة بالليل، بطال بالنهار» !!..

وفى هذا المسلك إخلال تام بحكمة الصوم الذى يهدف أول ما يهدف إلى مكافحة البطنة، وتدريب النفس والجسم على القناعة..

يقول عليه السلام: **«المؤمن يأكل فى معى واحد، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء» !!..**

فإذا لم يجد المسلم فرصته المبتغاة فى شهر رمضان لكى يكف نفسه عن التخمة، ولكى يروضها على القناعة، ولكى ينفذ إلى

داخل نفسه عن طريق الصوم بكل ما يزكيها ويؤتيها تقواها، وهداها، فمتى يجد هذه الفرصة النادرة؟..

نحن جميعاً نعرف أن بيت الرسول كان يشهد الشهور الثلاثة لا يوقد فيه نار تطهو طعاماً ما يمكن أن يكون هناك !!..

ونعرف أنه وأصحابه كانوا فى رمضان بالذات يتخففون مما يزحم المعدة والأمعاء من شراب وطعام..

ونعرف أن حكمة الصوم تتنافى تماماً وهذا الزحام الذى نملؤ به بطوننا ساعة الغروب..

بل نعرف أن الصحة العامة للإنسان ـ أى إنسان ـ لا تنسجم مع هذا النهم الذى يصادف فيه المرء حتفه، وهو يدرى أو لا يدرى..

نعرف هذا كله، ومع ذلك فإننا نقبل على الطعام عند الإفطار بأضراس مشحوذة، وأشداق متلمظة، وشهية متنمرة، ونفس هلوع !!..

• • •

نحن لا نحرم طيبات ما أحل الله.. ولكننا نريد أن نبقى عليها كطيبات، ولا نحولها إلى رغبة مسعورة فى ملىء الأمعاء بالطعام إلى الحد الذى يسبب الأمراض والآلام..

كان «مالك بن دينار» رضى الله عنه يقول: «إنى لأرضى من أحدكم أن يحافظ على دينه كما يحافظ على نعليه»..

ولو رأى كثرة المسلمين اليوم وهم يتجمعون حول مائدة الطعام عند مغرب الشمس لازداد بما قال إيماناً !!..

فليت أحدنا يحافظ على صيامه كما يحافظ على نعله ؟!.

ليته يصونه من الطمع والجشع والنهم.. وليته يصونه من الموبقات التى يجترحها بعد أن يملأ معدته، وينطلق إلى الشارع ليغذى نهمته وشهوته كالثور المهتاج..

يجب ألا نلغى حكمة الصوم بهذا السلوك ـ ويجب أن نبسط أيدينا حين نبسطها للفقراء..

ويجب على بعض بلاد العرب المسلمين التى أغناها الله وأثراها، أن تذكر الحفاة العراة الجياع فى بلاد أخرى كثيرة للمسلمين فتمتد أيدى حكامها وأثريائها بالعطاء الواسع لتلك الشعوب.. على أية صورة من صور البر والعطاء..

• • •

ولسنا حين نتحدث عن آفة الشبع التى تغتال صيامنا فى رمضان.. لسنا حين نفعل ذلك نغفل عن أنه ـ كما قال الرسول ـ شهر يزاد رزق المؤمن فيه.. وإن الله يجب أن يرى أثر نعمته على عبده..

بيد أننا نلاحظ جميعاً أننا فى شهر رمضان يركبنا شيطان الإسراف فى كل شىء، ولاسيما فى ملء موائدنا بما نعرف إلى أين ينتهى ويصير!!..

فلنستمتع بنعم الله علينا فى غير سرف ولا مخيلة، لاسيا فى شهر الزهد هذا، وفى شهر العبادة والصيام..

يقول «أبو قلابة» رضى الله عنه: «لن تضرك دنيا أديت شكرها لله عز وجل»..

فلن يضرك إذن ما تطعم فى رمضان مادمت تؤدى شكره.. بيد أنه من تمام الشكر هنا أن نتجنب موائد الرياء التى نقيمها، وولائم البذخ التى تنصبها، وأن نتجنب الإسراف حتى لا يحيق بنا قول الله سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾

[سورة الإسراء الآية: ١١١].

وصحيح أن أحداً لا يستطيع أن يحرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق «**قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة**».

ولكن صحيح أيضاً أن نضع الأمور فى مواضيعها، وألا نجعل من شهر اسمه شهر «الصيام» شهر الامتلاء والارتخاء وسعار الشهيات يقول: «ربيعة بن أبى عبد الرحمن»: «لقد رأيت مشيخة بالمدينة، وأن لهم لغرراً، وعليهم المعصفر والمورد.. فى أيديهم مخاصر، وفى أكفهم أثر الحناء، ومع ذلك فإن دين أحدهم أبعد من الثريا.. لا تناله رغبة ولا رهبة»!!.

هكذا يكون المؤمنون . يعرفون كيف ومتى يستمتعون بالطيبات ، دون أن تنال هذه الطيبات من دينهم ومن روعهم مثالاً ..

ودون أن يفسدوا حكمة التشريع فى عبادة كالصوم بتهالكهم على الشبع المسعور، وتهافتهم على التخمة القاتلة ..

لقد سمى رمضان «شهر الله» لأننا نتخلى فيه عن الكثير من شهواتنا وأهوائنا وملذاتنا ، إيثاراً لإرضاء الله ، وأملاً فى رحمته وليس من حقنا أن ننتزع من هذا الشهر حكمته وروعته بما نقدم بين أيدينا ومن خلفنا من سرف وخيلاء ..

لنبسط الموائد ، ولكن للذين يستحقونها وينتظرونها على شوق ليقيموا أودهم ويمسكوا رمقهم ..

وليس معنى ذلك ألا تولم لأقاربك وأصدقائك ، ولكن اصنع كما كان يصنع ابن عمر حين كان يعاتب بعض أبنائه ، لأنهم يولمون للأغنياء ويذرون الفقراء ـ وكان يقول لهم متهكماً ومستنكراً : «تدعون الشباع ـ بسكون الدال ـ وتدعون الجياع ـ بفتح الدال » ..

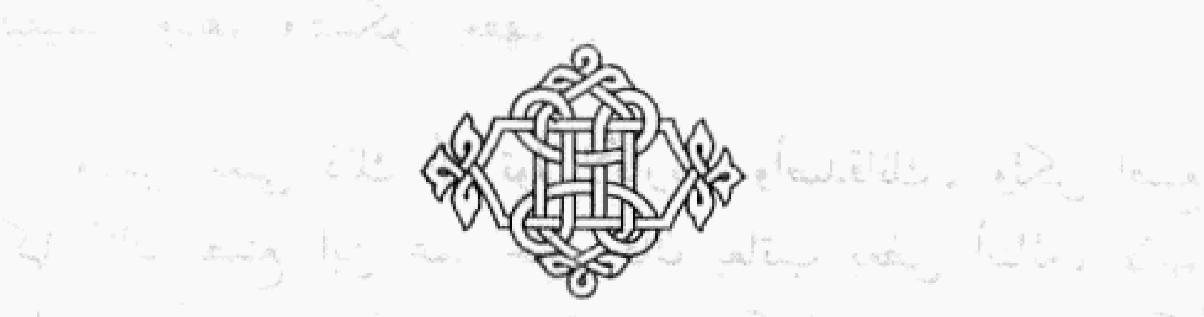
أجل إن الذين يَدْعون الشباع ، ويَدَعون الجياع لم ينتفعوا بصيامهم ، ولم يفقهوا حكمة الله فى هذا الشهر الكريم ..

أهدى أحد أصدقاء عبدالله بن عمر إليه بعض الهدايا التى جاء بها من خراسان وكان من بينها دواء سأل ابن عمر صاحبه ـ ماهذا ؟.. قال : دواء يهضم الطعام.. فابتسم ابن عمر وقال دهشاً :

يهضم الطعام ؟؟ إنى لم أشبع من طعام قط منذ أربعين عاماً !!..

إن هذا الذى لايشبع من طعام منذ أربعين عاماً لم يكن يترك الشبع عن خاصة، بل قناعة، وزهداً، وورعاً ومحاولة للتأسى برسوله وأبيه..

كان يخاف أن يكون ممن يقال لهم يوم القيامة : **أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا..**



١٧

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ـ للصائم فرحتان يفرحها: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقى ربه فرح بصومه» ..

(رواه البخارى ومسلم)

تطل علينا فى أيام رمضان المعظم نفحة من نفحات الله التى قيل فيها: «**إن لربكم فى أيام دهركم لنفحات، ألا فتعرضوا لها**» ..

هذه هى أيام رمضان المعظم الذى اختاره الله لأمة حبيبه سيدنا محمد ﷺ ليكون موعد لقائها مع الله حيث يغدق عليها من نعمائه وآلائه ورضوانه مالا عين ترى، ولا أذن تسمع، ولا يخطر ببال بشر!! ..

ولقد تحدث رسول الله عن رمضان وعن الصيام حديثاً غدقا كشف فيه عن مزايا هذا الشهر وعن بركات الصيام وبشر الصائمين بخير ماعند الله من نعمة وعطاء..

وليس عجيباً أن يختار الرسول خلوف فم الصائم وهو تغير رائحة فمه من الجوع والصوم، ليضربها مثلاً على مدى ما للصائم عند الله من دالة ومنزلة فهذا الخلوف الذى نتوقاه، ونحاول ألا نشم ريحه هو عند الله أطيب من ريح المسك..

وفى هذا تكريم ما بعده تكريم !!..

• • •

غير أن الصوم، ولاسيما فى أيامنا هذه الصائفة الحرور، عبادة تشق على النفس، ولا يطيب بها الخاطر.. وفى هذا ما يضاعف من قدرها وثوابها..

والصالحون من أمة سيدنا **محمد** تطير أفئدتهم شوقاً لكل عبادة لا يكون للنفس فيها هوى، حتى هوى الراحة، وينعمون بكل طاعة فيها معاناة ومشقة..

هذا هو «عامر بن قيس» رضى الله عنه يقول لأصحابه الحافين به وهو فى مرض موته وقد تحدرت دموعه على وجنتيه:

«لست أبكى على دنياكم رغبة فيها، إنما أبكى على ظمأ الهواجر، وقيام الليالى الشاتية»..

ويقول: «يحيى بن أبى كثير» رضى الله عنه:

«ست خصال من كن فيه، فقد استكمل الإيمان ــ قتال أعداء الله بالسيف.. والصيام فى الصيف.. وإسباغ الوضوء فى اليوم الشاتى.. والتكبير إلى الصلاة فى اليوم المطير.. وترك الجدال والمراء والحق معك.. والصبر على المصيبة» !!..

فظمأ الهواجر فى الصيف ابتغاء رضوان الله لأمره غاية كل مؤمن قوى الإيمان. ولقد كانوا يرحبون بتلك الأيام الحرور الصائفة كأنها حبيب جاء على شوق.. أولئك هم الرجال حقاً.. فهل لنا فيهم أسوة يا رجال.. والعمل الصالح، أحزبه أثوبه.. أى أن أكثره مشقة، أكثره ثواباً وأعظمه أجراً وإن قوماً غرتهم الأمانى، يقولون: ما جعل الله علينا فى الدين من حرج.. وفى هذه الأيام القاتلة ما علينا من صيام.. وهذه دعوى كل عاجز يصيبه الاحباط، وتتفسخ إرادته تحت وطأة الأعمال المحتملة، لأن قلوبهم خواء وأفئدتهم هواء !!..

إن الصوم فى أى وقت يجىء.. فى رمضان أو غير رمضان هو عبادة المتبتلين ومتعة الأبرار والصالحين..

إنه العبادة التى لا يشوبها شرك ولا نفاق ولا رياء أبداً.. ولا نكاد نعرف عبادة أخرى غير الصوم لها هذه المزية العظمى إنك تستطيع أن تطعم وتشرب فى خفاء.. وإذن فاستمساكك بالصوم نابع من إرادة حازمة تقية مؤمنة، وصومك عمل لا تتسرب إليه أية شبهة من رياء !!..

بيد أن الصيام ليس الامساك عن الطعام والشراب والجنس وحسب.. إنه كبقية العبادات يتطلب إخلاصاً ورغبة.. يتطلب أن تصوم عن اقتناع بجدوى صيامك عند الله. وعن رغبة شاكرة في إرضائه..

إن العبادة تختلف بين عابد وآخر وفق ما وراءها من همة وعزم ونية وصدق، وهنا «مالك بن أنس» رضى الله عنه يقول: «إن لمن يسجد لله، ومن يسجد للصنم صورة واحدة في سجودهما.. ومع ذلك فالأول عابد، والثاني كافر ــ لقد فرقت بينهما النيات» !!..

فالصائم الذى خلوف فمه أطيب عند الله من ريح المسك.. الصائم الذى ينال هذه المنزلة ويتسنم هذه الذرى، ليس هو الذى يصوم عادة وخجلاً من الناس أن يقولوا: مفطر، بل هو الذى يندفع في شوق غامر ومحبة آسرة، فيصوم مخبتاً أواباً، ممتلئاً وشاكراً ريان النفس حى القلب، مفيض الغبطة لأن الله سبحانه شرفه فأمره بالصوم ووفقه فصام !!..

يقول زين العابدين «على بن الحسين» رضى الله عنه: «إن قوماً عبدوا الله رهبة من العذاب، فتلك عبادة العبيد.. وقوماً عبدوه رغبة في غرض، فتلك عبادة التجار.. وقوماً عبدوه امتثالاً وشكراً، فتلك عبادة الأحرار» !!..

فلكى تكون واحداً من هؤلاء الأحرار صم تقرباً إلى الله. وصم، امتثالاً لأمر الله.. وصم، شكراناً وحمداً لله..

يقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

«من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه» ..

فالصوم إيماناً واحتساباً هو المطلوب من المسلم الرشيد والمؤمن الصادق. قال الخطابى : «إيماناً واحتساباً ــ أى نية وعزيمة ، وهو أن يصوم رمضان على التصديق والرغبة فى ثوابه ، طيبة به نفسه ، غير كاره له ، ولا مستقل لصيامه ، ولا مستطيل لأيامه . بل هو يغتنم طول أيامه لعظم الثواب» ..

إن شهر رمضان فرصة لا تفلت إلا من خائب السعى مخبول ، فهو الكفارة الصادقة لما سبق رمضان من ذنوب طوال العام ..

وهو شهر الله الذى لا تعدل به بقية الشهور ..

يقول عليه الصلاة والسلام : **«من صام رمضان وعرف حدوده وتحفظ مما ينبغى له أن يتحفظ ، كفر ما قبله» ..**

ويقول : **«الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان مفكرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر» ..**

• • •

وللصائم كما ذكر الرسول ﷺ فى الحديث صدرنا به الفصل فرحتان .. فرحة عند فطوره ، وفرحة عند لقاء ربه ..

ونحن نشهد فرحتنا عند الفطر ونشعر بها شعوراً فرحاً مجبوراً ـــليس لأننا سنروى ظمأنا ونسد جوعتنا، بل لأن الله وفقنا فصمنا، وأعاننا فامتثلنا..

فكيف إذن بفرحة الآخرة.. كيف بفرحتنا يوم لقاء الله غداة الموت، ثم عند لقائه يوم القيامة عندما يخصص للصائمين باب يقال له «الريان» لا يدخل منه سواهم تكريماً لهم وحفاوة بهم..

إن معاناة الصوم كما قلنا شرف كبير للصائم.. وإذا نحن تفحصنا أنفسنا وجدناها تضيق دائماً بالعبادة حتى مالم يكن منها له مشقة عليها..

ولهذا قال الرسول عليه السلام: **«حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»..**

فطبيعة النفس البشرية الاصغاء المستمر لصوت هواها ولغوها، واستمراء اللهو واللعب والاثم.. ولكن الجنة غالية الثمن، وهى لم تخلق للكسالى الفارغين، بل خلقت للذين يشمرون عن الساعد، ويخرون للاذقان سجداً.. للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً !!..

يقول: «إبراهيم بن أدهم» رضى الله عنه: «إذا أردت أن تقترب من الصالحين، فأغلق باب الراحة وافتح باب الجهد.. واغلق باب النوم وافتح باب السهر.. واغلق باب الأمل وتأهب للموت»..

ليس معنى ذلك أن يشق الصائم على نفسه حتى تزهق، أو يحرم القائم على نفسه النوم، أو يتأهب المخبت الأواب للموت تأهباً يصرفه كلية عن الحياة..

كلا، فالإسلام دين القصد، والمسلمون أمة الوسط. لا إفراط ولا تفريط..

إنما معناه ألاَّ يدع شبابه لهدمه، وآخرته لدنيا.. معناه أن يضمخ نفسه بعطر التقوى، ولا ينسى مصيره يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم..

معناه ألا يترك نفسه قصداً بالإهمال، ويتقوقع داخل شهواتها الخفية والمعلنة. بل ينهض بها فى همة الرجال، ويصلها بالله عن طريق عبادته..

• • •

وهذه الفرصة متاحة للمسلم فى رمضان. وهكذا أراده الله.. أن يكون شهر تزلف إليه، وانطراح بين يديه. يحيى المسلم ليله بالصلاة ونهاره بالصوم، ويتبتل إلى ربه تبتلاً!!..

إن «رمضان» فرصة ليتذوق المسلم فيها حلاوة الإيمان وطعم العبادة الحلو الشهى..

فرصة ليغسل ذنوبه وأوزاره، وليستقبل نفحات الله كالبشريات.. بل هى البشريات بعينها تنعش الروح، وتملؤها

بالفرح المقدس، وترتفع بها إلى مستوى الكمال الذى يريده الله لعباده الأولين..

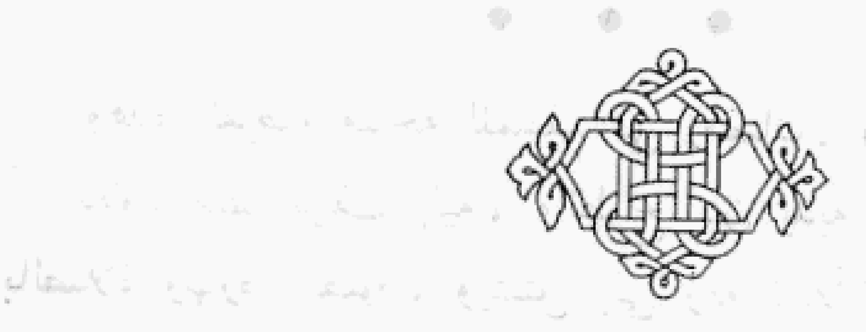
ولنعد مرة أخرى قراءة كلمات «عامر بن قيس» التى تغنى بها وهو يبكى فى مرض موته: «لست أبكى على دنياكم رغبة فيها.. إنما أبكى على ظمأ الهواجر، وقيام الليالى الشاتية»..

فرحباً بظمأ الهواجر!!..

مرحباً بشهر الله العظيم..

مرحباً بأيامه الصوامة، ولياليه القوامة..

ومرحباً بعطايا ربنا وهباته التى تتنزل فى هذه الأيام المباركة تنزل الغيث على الأرض الظامئة والنبات المشتاق..



١٨

عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل بنى آدم خطاء. وخير الخطائين التوابون».

(رواه الترمذى والحاكم وابن ماجه)

لا نزال فى لقائنا مع الرسول وهو يحدثنا عن التوبة..

فيخبرنا عليه السلام أن كل بنى آدم خطاءون، وأن خير الخطائين التوابون.

إن الخطأ سمة من سمات الإنسان كما أن الصواب بعض سماته..

وبعض غددنا يفرز من الشر مالا قِبَلَ لنا بتجنبه. من أجل ذلك كانت التوبة تفضلاً عظيماً من الله على عباده..

فالمؤمن إذا أحسن إلى الله متابه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وأنسى الله حفظته ذنوبه، وأنسى ذلك جوارحه ومعالمه من الأرض حتى يلقى الله وليس عليه شاهد من الله بذنب!!..

والندم كما روى عن الرسول توبة، والنادم ينتظر من الله الرحمة، بينما المعجب ينتظر المقت..

ولكن إلى أى مدى يذهب بنا الندم إليه؟..

إن كون الندم توبة لايعنى أن يكون أمرنا فيه فرطاً.. ولايعنى أن نقتل أنفسنا تحت الوطأة الثقيلة الموغلة للندم..

من أجل ذلك وصف الله عباده المحسنين بأنهم **«يرجون رحمته ويخافون عذابه»**..

وفى سبيل توكيد معنى الرحمة بالنفس عند الندم ـ يقول عليه الصلاة والسلام:

«والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله فيغفر لهم»..

يقول الإمام ابن القيم فى تفسير هذا الحديث: إن أسماء الله الحسنى تقتضى آثارها إقتضاء الأسباب التامة لمسبباتها. فاسم «السميع. البصير» يقتضى مسموعاً ومبصراً ـ بفتح الصاد ـ واسم «الرزاق» يقتضى مرزوقاً.. واسم «الرحيم» يقتضى مرحوماً..

وكذلك أسماء «الغفور والتواب والحليم» تقتضى وجود من يغفر له، ويتوب عليه، ويعفو عنه..

ويستحيل تعطيل هذه الأسماء والصفات.. إذ هى أسماء حسنى، وصفات كمال، ونعوت جلال. فلابد من ظهور آثارها فى العالم.. وقد أشار إلى هذا أعلم الخلق بالله صلوات الله وسلامه عليه حيث يقول: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون الله فيغفر لهم»..

وأنت إذا فرضت كل من يحتاج إلى الرزق معدوماً، فمن يرزق الرزاق سبحانه.. وإذا فرضت المعصية والخطيئة منتفية من العالم، فلمن يغفر؟ وعمن يعفو؟ وعلى من يتوب ويحلم؟ وإذا فرضت الفاقات كلها قد سدت، والعباد كلهم أغنياء معافون، فأين السؤال والتضرع والابتهال؟..

وأين الإجابة، وشهود الفضل والمنة، والتخصيص بالإنعام والإكرام..

ونستطيع أن نضيف إلى تفسير ابن القيم أن الحديث يشرح أصدق ما وصل إليه اليوم علم النفس. فنحن بنى البشر نتكون من غرائز تفرض علينا سلطانها بحيث تصبح الذنوب ضرورة إفرازية أو إفرازا ضرورياً لهذه الغرائز فالخطأ يكاد يكون وظيفة إنسانية، لا يستطيع أحد الفكاك منها، وعدم الذنب يعنى أننا نفقد طبيعتنا التى نعيش بها ونحيا عليها..

من أجل ذلك كان الخلاص من الذنوب بشكل كلى أمراً غير وارد على الإطلاق..

ثم إن الحديث مبالغة مشكورة فى إبراز عفو الله، وإبراز تفاهة الذنوب مهما عظمت أمام رحمة الله..

على أن التوفيق بين الرجاء فى رحمة الله والخوف من عقابه يحتاج إلى مهارة بالغة فى تناوله..

ولهذا كان الرسول ﷺ يعالج مواقف التخويف بمواقف الرحمة والأمل..

يمر عليه السلام ذات يوم ومعه نفر من أصحابه بأم تحتضن وليدها في شغف وضمخ وجهه الغض بقبلاتها الرحيمة، فيتملى النبى هذا المشهد الفاتن الحانى، ويقول لأصحابه: **«أترون هذه طارحة ولدها فى النار؟ قالوا: كلا يا رسول الله.. فيقول: والذى نفسى بيده لله أرحم بعبده المؤمن من هذه بولدها» !!..**

صحيح أن القرآن يخوفنا من عذاب الله ـ **«فذكر بالقرآن من يخاف وعيد»** ـ **«ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد»** ـ **«وأن عذابى هو العذاب الأليم»** ..

وآيات التخويف كثيرة، بيد أن آيات الرحمة تأخذ مكانها عليها بين آيات الترهيب..

وحسبنا الآية التى ذكرناها آنفا يصف الله بها المؤمنين بأنهم الذين **«يرجون رحمته ويخافون عذابه»** ..

ويحدثنا الرسول فيقول : قال الله عز وجل ـ أى فى حديث قدسى «أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه حيث يذكرنى . والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة . ومن تقرّب إلىّ شبراً تقربت إليه ذراعاً .. ومن تقرب إلى ذراعاً .. تقربت إليه باعاً .. وإذا أقبل إلىّ يمشى أقبلت إليه أهرول» رواه البخارى ومسلم واللفظ لمسلم ..

ولنطالع هذا الحديث الذى يحكى فرح الله العظيم برجوع عبده الضال إليه ..

«لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل بأرض دوية ـ بفتح الدال وتشديد الواو والياء وهى الفلاة القفر ـ نزل بأرض دوية مهلكة . معه راحلته ، عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام .. فاستيقظ وقد ذهبت راحلته ، فطلبها . حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش قال أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه فأنام حتى أموت .. فوضع رأسه على ساعده ونام . ثم استيقظ ، فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه ، فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته» !! ..

أى عواطف بارة ودافئة ، هذه التى يواجه بها رسول الله مشكلة الخطيئة فى حياة الإنسان ..

والله .. ما أروع رحمته وهو يدثر بها عرى الخطاه وما أكثر بره وحنانه ببنى الإنسان وعليهم !! ..

ما أكرمه من إله وما أحناه ..

عباده يبارزونه بالعظائم، وهو يكلؤهم على فرشهم، يخلق ويعبد غيره، ويرزق ويشكر سواه. خيره إلى العباد نازل، وشرهم إليه صاعد. يتحبب إليهم بالنعم، وهو الغنى عنهم، ويتبغضون إليه بالمعاصى، وهم أفقر شيء إليه !!..

أهل ذكره أهل مجالسته، وأهل شكره أهل زيادته، وأهل طاعته أهل كرامته، وأهل معصيته لا يقنطهم من رحمته.. إن تابوا إليه فهو حبيبهم، وإن لم يتوبوا فهو طبيبهم، يبتليهم بالمصائب، ليطهرهم من المعايب.. الحسنة عنده بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. والسيئة عنده بواحدة، فإن ندم صاحبها عليها واستغفره غفر له..

يشكر اليسير من العمل، ويغفر الكثير من الزلل.. رحمته سبقت غضبه، وحلمه سبق مؤاخذته، وعفوه سبق عقوبته. أرحم بعباده من الأم بولدها..

وأنه كما رأينا وسمعنا لشديد الفرح بتوبة التائبين وهى فرحة بر ولطف وإحسان لا فرحة محتاج إلى توبة عبده منتفع بها. فهو سبحانه لا يستكثر بعبده من قلة، ولا يتعزز به من ذلة، ولا ينتصر به من غلبة، ولا يعده لنائبة، ولا يستعين به فى أمر..

وصدق سبحانه إذ يقول :

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾

(سورة الإسراء الآية : ١١١)

• • •

والتوبة تعنى وضع الحسنة مكان السيئة ففى حديث الرسول :

« اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » ..

وقوله لمعاذ : **« أحدث لكل ذنب توبة وإذا أسأت فأحسن »** وقوله لأبى الدراداء : **« إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها » ..**

إن الرسول عليه السلام يريد من المسلم أن يثابر على بناء ذاته ويريد أن تكون توبته إيجابية ، فهى ليست مجرد الندم والعزم على عدم العود إلى الذنب .. بل هى بناء لشخصيته بوضع الحسنة مكان السيئة والمعروف مكان المنكر ..

والحسنات التى تأخذ مكانها بدل السيئات كثيرة ــ فالاستغفار حسنة ، وذكر الله حسنة ، وفعل الخير حسنة ، والصلاة حسنة ..

جاء رجل إلى النبى عليه السلام فقال له : إنى عالجت إمرأة فى أقصى المدينة دون أن أمسها ــ لعله يقصد أنه أشبع نفسه من النظرات الكثيرة المشتهية أو لامس بعض أجزاء جسمها ــ فاقض

فى ماشئت.. فقال له عمر رضى الله عنه: لقد سترك الله لو سترت نفسك، ولم يجبه النبى بشىء، فقام الرجل فانطلق.. فدعاه النبى إليه ثم تلا عليه هذه الآية:

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾

(سورة هـود الآية: ١١٤).

فقام رجل من القوم وقال: يا نبى الله، هذا له خاصة فقال الرسول: **بل للناس كافة.**

إن وضع الحسنة مكان السيئة بعد التوبة منها والإقلاع عنها هو آية على أن التائب جاد فى توبته:

ومن يجد الطريق إلى المعالى
فلا يذر المطى بلا سنام
ولم أر فى عيوب الناس عيبا
كنقص القادرين على التمام

ومهما تكن الذنوب فإنها لا تعاظم رحمة الله أبداً..

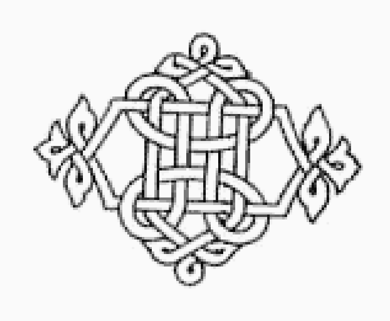
جاء رجل إلى النبى فقال له: «**أرأيت من عمل الذنوب كلها ولم يترك منها شيئاً، وهو فى ذلك لم يترك حاجة ولا داجة إلا أتاها ـ الحاجة الصغيرة، والداجة الحاجة الكبيرة ـ فهل لذلك من توبة؟ قال له الرسول: فهل أسلمت؟ قال نعم،**

وأنى لأشهد ألا إله إلا الله وأنك رسول الله .. قال له النبى: تفعل الخيرات، وتترك السيئات، فيجعلهن الله لك الخيرات كلهن.. قال الرجل: وغدراتى وفجراتى؟ .. قال النبى نعم وغدراتك وفجراتك فصاح الرجل الله أكبر ومازال يكبر حتى توارى ..

تلك عظمة الإسلام الخالدة، وعظمة «محمد» الماجدة.

وصدق الله حين قال : **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين.**

وصدق الرسول حين قال : **إنما أنا رحمة مهداة ..**





١٩

عن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يبسط يده بالليل، ليتوب مسىء النهار.. ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»..

(رواه مسلم والنسائى)

من أشرف المقامات التى يعبر بها المسافرون إلى الله مقام التوبة..

والتوبة هى بداية العبد ونهايته..

ومنزلها أو المنازل وأوسطها وآخرها.. ومهما ينتقل العبد بين منازل القرب ومقامات الوصول، ومهما يترق فى تلك المنازل والمقامات، فإنه لابد مستصحب معه منزل التوبة ومقامها..

يقول ربنا سبحانه: **«وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون»..**

ويلفت ابن القيم رضى الله عنه أنظارنا إلى أن هذه الآية مدنية. خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه ودعاهم إلى التوبة بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم. ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه، وأتى بأداة «لعل» المشعرة بالترجى إيذانا بأنه لايرجو الفلاح إلا التائبون..

وفى آية كريمة أخرى يقول عز وجل: **«ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون»..**

فالذين يتقاعدون عن التوبة وينسونها أو يتناسونها، ظالمون لأنفسهم، خاسرة أعمالهم..

• • •

ونحن فى لقائنا هذا مع رسول الله ﷺ نرتوى بحديثه عن التوبة ونزداد يقينا بفضل الله علينا، ورحمته إيانا..

يقول عليه الصلاة والسلام:

«يا أيها الناس توبوا إلى الله، فوالله إنى لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»..

وكان أصحابه يعدون له فى المجلس الواحد قبل أن يقوم: **«رب أغفر لى وتب علىّ إنك أنت التواب الرحيم»** مائة مرة..

إن التوبة رجوع.. والرجوع هنا يكون إلى الله العلى الأعلى..

والذى يستنكف عن التوبة ويتأباها إنسان قد خسر نفسه ودينه..

والتوبة لاتكون فقط للمذنبين. بل هى كالاستغفار للذين لاذنوب لهم أيضاً..

ويندر أن تجد من لاذنب له. وحتى إن وجد، فحاجته إلى التوبة لاتقل عن حاجة المذنبين..

يقول الرسول عليه السلام:

«لن ينجو أحد منكم بعمله.. قال أصحابه: ولا أنت يا رسول الله؟؟ قال: ولا أنا.. إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل»..

والتوبة تعنى أنك نادم على عصيانك الله، آسف على ضعفك أمام نفسك والشيطان..

وهذا الندم وحده كاف لأن يمنحك الله عفوه، ما دمت قد وجدت مكان حلاوة المعصية مرارة الندم..

ومن ثم، فالفرح بالمعصية وتشهيها يعنى أن توبتك قد باءت بخذلان..

يقول ابن القيم: الفرح بالمعصية دليل على شدة الرغبة فيها، والجهل بقدر من عصاه، والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطرها. ففرحة بها غطى ذلك كله. وفرحة بها أشد ضرراً عليه من

مواقعتها.. والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبداً ولا يكتمل بها فرحة. بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط قلبه ولكن سكر الشهوة يحجبه عن الشعور به.. ومتى خلى قلبه من هذا الحزن، واشتدت غبطته وسروره، فليتهم إيمانه، وليبك على موت قلبه، فإنه لو كان حيا لأحزنه إرتكابه للذنب وإذا فارق الاحساس بهذا، فما لجرح بميت إيلام !!..

والتوبة إقرار أكثر مما هى اعتذار.. لأن الاعتذار محاجة عن الخطيئة، وترك الاعتذار إعتراف بها..

يقول الشاعر العربى:

وما قابلت عتبك باعتذار
ولكنى أقول كما تقول
وأطرق باب عفوك بانكسار
ويحكم بيننا الخلق الجميل

ولسان حال التائب هذه الضراعة: «اللهم لا براءة لى من ذنب فأعتذر، ولا قوة لى فأنتصر، ولكنى مذنب مستغفر»..

ويبشرنا الرسول ﷺ بأن التوبة قادرة على محو الخطايا مهما تكثر وتتعاظم.

يقول عليه السلام:

«لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء، ثم تبتم لتاب الله عليكم».

ويقول : **«من سعادة المرء أن يطول عمره، ويرزقه الله الإنابة» ..**

والإنابة هى التوبة ـــ والتوبة كما قلنا : رجوع ..

وليس ثمة خطأ مهما كبر يتعاظم عفو الله ومغفرته .. وهذا من تمام نعمته على عباده . فلولا التوبة وقبولها لاحترق الناس فى نيران اليأس والندم ..

ولقد كان من واسع كرمه وفضله أن جعل الرجاء فى رحمته علامة الإيمان ، واليأس من رحمته علامة الكفر .. فقال تعالى :

﴿ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

[سورة يوسف الآية : ٨٧] .

وقال :

﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾

[سورة الحجر الآية : ٥٦] .

وقال :

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

[سورة الزمر الآية : ٥٣] .

أهناك دعوة لاستثمار رحمة الله أوسع وأصدق من هذه الدعوة ؟! ..

إن التوبة من أعظم هبات الله للمؤمنين، وإنها خير وأزكى من كل ما في الأرض من ذهب وفضة. ولولاها لهلك المؤمنون تحت مطارق اليأس ومقارع القنوط.. لكن الله البار بعباده يعطيهم ثم يعطيهم ثم يعطيهم حتى لا يبقى لمتخلف عذر..

يحدثنا ابن عباس رضى الله عنهما فيقول: قالت قريش للنبى ﷺ ادع لنا ربك يجعل لنا جبل الصفا ذهباً.. فإن أصبح ذهباً إتبعناك، فدعا النبى ربه. فأتاه جبريل عليه السلام وقال له:
«إن ربك يقرئك السلام ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً. ومن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذاباً، لا أعذبه أحداً من العالمين.. وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة. فقال الرسول: بل باب التوبة والرحمة» ..

● ● ●

والتوبة باب مفتوح بين العبد وربه.. بيد أن له ساعة يغلق فيها فلا يقبل من العبد توبة ولا اعتذار... ؟

يقول الرسول عليه السلام:

«إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر».

فعمرك بطوله وبعرضه فرصة لك لكى تتوب .. أما الوثوب على الأنام، وإرجاء التوبة إلى غد وبعد غد حتى يبغتك الموت فقد ضاعت الفرصة وأفلتت منك إلى الأبد ..

إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر أى مالم تبلغ روحه الحلقوم ..

من أجل هذا يحذرنا الرسول ﷺ بقوله : **« واحذروا التسويف فإن الموت يأتى بغتة ، ولا يغترن أحدكم بحكم الله عز وجل ، فإن الجنة والنار أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، ثم تلا هذه الآية :**

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾

[سورة الزلزلة الآية : ٧ ، ٨] .

ونحن مطالبون بالتوبة مهما تكن ذنوبنا قوة وضعفا ، وبدءاً وعودا ..

فالتوبة جلاء مستمر لقلوبنا . ذلك أن الخطايا تدع قلوبنا سوداء شيئاً فشيئاً ..

يقول عليه السلام :

« إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كان نكتة سوداء فى قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر حيقل منها ، وإن زاد

زادت حتى يغلف بها قلبه فذلك الران الذى يذكر الله فى كتابه (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون)».

فالمثابرة على التوبة تعنى غسل القلب أولاً بأول حتى يظل كالمرآة المجلوة تنعكس عليه آيات الهدى ودعوات الرشاد أما الغفلة أو التغافل عن التوبة فإنه يملأ القلب صدأ أو ظلاماً.

والعودة إلى الذنوب بعد التوبة عنها ومنها لا تعنى أن باب التوبة قد أغلق دوننا..

فالرسول يقول:

«وما عملت من سوء فأحدث له توبة».

فنحن ضحايا لقوى شريرة عاتية هى النفس الهاوية والشيطان المغرى..

وقد نتوب من ذنب ونعكف على ذنوب أخر، وحتى هذا لا ينبغى أن يقعدنا عن التوبة أبداً..

يقول الرسول عليه السلام: **«إن عبداً أصاب ذنبا. فقال يا رب إنى أذنبت ذنباً فاغفره.. فقال له ربه: علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به فغفر له.. ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنبا آخر فقال: يارب إنى أذنبت ذنباً آخر فاغفره لى. قال ربه: علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به.**

فغفر له.. ثم مكث ما شاء الله ثم أذنب ذنباً آخر، فقال: يارب إني أذنبت ذنباً فاغفره لي.. قال ربه: علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرته لعبدى فليعمل ما شاء».

هذا الحديث يرويه البخارى ومسلم عن أبى هريرة، ولا يحق لنا أن نرفضه بسبب آخر عبارة وردت فيه **«قد غفرت لعبدى فليعمل ما شاء»** لأن معنى هذه العبارة أن ذلك العبد عرف طريقه إلى الله بتوبته العاجلة والمبكرة من كل ذنب يأتيه.. وهو فى الحديث لم يصر على ذنب واحد وتاب منه توبة الكاذبين. بدليل قول الرسول **«ثم أصاب ذنباً آخر»..**

والإنسان منا عرضة للخطأ إلى منتهى حياته، ويجب أن يجدد لكل ذنب توبة صادقة لا يعود بعدها إلى هذا الذنب أبداً وهو إذا فعل ذلك كان عرضة لمغفرة الله ورحمته دوماً وهذا معنى قوله **فليعمل ما شاء...**

وليس معناها أبداً أنه يحمل من الله إذنا بالمرور إلى المعاصى والخطايا. فذلك مما لا يخطر على عقل رشيد..

يقول عليه السلام:

«التائب من الذنب، كمن لا ذنب له».

وفى هذا إبانة مسفرة لواسع رحمة الله، وعظيم فضله وإحسانه..

٢٠

عن أبي ذر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: من استغفرني، وهو يعلم أني ذو قدرة على أن أغفر له، غفرت له ولا أبالي» ..

(رواه مسلم والترمذى وابن ماجة والبيهقى)

بين يدى العلى الكبير، يقف الجبار خاضعاً، والمستكبر خاشعاً، والآبق طائعاً .. لأنه العظيم الذى انفرد بالعظمة .. الجليل الذى تفرد بالجلال ..

له الخلق والأمر، وإليه يرجع الأمر كله. خلق عباده وهو بهم أعلم .. وحنا عليهم وهو بهم أكرم .. وأعطى كل شىء خلقه ثم هدى ..

والإنسان ما بين إرادة للخير تدعوه وإرادة للشر تناديه .. وصدق الله القائل: «**ونفس وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها**» ..

وأن الضعف البشرى حقيقة لا ريب فيها ..

يقول الله فى كتابه الكريم :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾

(سورة النجم الآية : ٣٢)

فالاشارة إلى نشأتنا من الأرض تومىء إلى طبيعتنا الطينية، إذ من الطين خلقنا بكل ما يعنيه هذا من تلوث بأوحال الطبيعة البشرية وإنحرافاتهم ..

والإشارة إلى حياتنا الأولى ــ حياة الأجنة ــ فى بطون أمهاتنا، إيماءة واضحة إلى قانون الوراثة الذى يعمل فينا ويوجه حياتنا .. وكما قال أحد الكتاب الغربيين : « كل امرىء منا عربة، يركبها جميع أسلافه » !! ..

وقد جعل الله لضعفنا الأخلاقى والسلوكى سبيلاً إلى الخلاص والنجاة والقوة ..

هذا السبيل يتمثل فى الاستغفار والتوبة ..

وفى لقائنا اليوم مع الرسول عليه السلام نصغى إليه وهو يحبب إلينا الاستغفار ويدعونا إليه ..

أما التوبة فقدْ كانا لنا معها لقاء ..

• • •

يحدثنا الرسول عن رب العزة قوله :

« يا عبادى كلكم مذنب إلا من عافيت. فاستغفرونى أغفر لكم .. وكلكم فقير إلا من أغنيت ، فأسألونى أعطكم .. وكلكم ضال إلا من هديت ، فاستهدونى أهدكم » ..

وطلب الله من العبد أن يستغفره تكريم للعبد وأذان له من الله أنه لا سبيل ــ أى سبيل ــ إلى طرده عن باب الله مادام يقرع هذا الباب دوماً بكفه الوجلة الضارعة .. أجل إن أبوابه مفتحة لنا جميعاً طائعين وعصاة . أبراراً وخطاة ..

إنه بالليل وبالنهار ينادينا : **« هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من مسترزق فأرزقه » ؟ ..**

وهو يريدنا بكل ما فينا من طين ونور .. فلا يأس أبداً من فضله ، ولا خوف قط من غياب جوده وعطائه وبره .. إذا ناديناه لبَّانا ..

وكما يقول بعض العارفين : « نعم الرب ربنا ، لو أطعناه ما عصانا » !! ..

والاستغفار إقراراً من العبد بعبوديته لله ، وطرح لكل ذاته بين يدى مولاه ..

من أجل ذلك كان الرسول عليه السلام يتفنن فى إنتقاء الكلمات التى يستغفر بها ربه..

أنظروا ـــ مثلاً ـــ هذا الاستغفار:

«اللهم أنت ربى، لا إله إلا أنت، خلقتنى وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت.. أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك على، وأبوء بذنبى فاغفر لى، فانه لا يغفر الذنوب إلا أنت ..

هذه تعاويذ يغردها الرسول بين يدى ربه وخالقه، ويضمنها كل ما فى روحه من شفافية ونور، وكل ما فى فؤاده الذكى من ضراعة وابتهال..

وللاستغفار جماله وجلاله. إنه كما ذكرنا إقرار منك بالعبودية لله، وإجلال لله ما بعده إجلال..

ونحن بحاجة دائمة وملحة لاستغفار ربنا، فآثامنا كثيرة وهمتنا قصيرة..

وقديماً قال بعض العارفين: «لا تعجب ممن هلك، كيف هلك. ولكن أعجب ممن نجا كيف نجا»؟..

ولقد كان الرسول ﷺ يستغفر الله ويتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة.. وقيل مائة مرة فى المجلس الواحد مع أصحابه..

فلم كان الرسول يستغفر؟؟..

لقد سئل فأجاب : **«أفلا أكون عبداً شكوراً» ؟! ..**

فاستغفار الله يعنى الاعتذار إليه كما يعنى شكره والثناء عليه ..

ولنا ــ نحن الخطائين ــ يكون الاستغفار زورق النجاة الذى يتخطفنا من فم الموج الكاسح المغرق ..

يقول الرسول عليه السلام :

«ألا أدلكم على دائكم ودوائكم؟ ألا إن داءكم الذنوب، ودواءكم الاستغفار» ..

ونحن طوال حياتنا فى معركة ضروس مع النفس والهوى والشيطان. وقد بلغ الشيطان فى وقاحته أن تهددنا أمام الله بإغوائنا وصدنا عن سبيل الهوى والحق ..

ففيما يرويه الإمام أحمد، عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : **«قال إبليس : وعزتك لا أبرح أغوى عبادك، ما دامت أرواحهم فى أجسادهم .. فقال الله : وعزتى وجلالى، لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى» !! ..**

• • •

والاستغفار لا ينفعنا فى الاعتذار عن خطايانا وحسب. بل هو سبيل لجلب منح الله والاستزادة من فضله ..

يقول عليه السلام: «**من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا، ومن كل ضيق مخرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب**».

ولقد روى السابقون أن رجلاً ذهب إلى الامام الحسن البصرى يشكو إليه الجدب، فقال له: استغفر الله.. وذهب ثان يشكو الفقر، فقال له: استغفر الله.. وذهب ثالث يشكو جفاف بستانه: فقال له: استغفر الله.. ثم تلا عليهم هذه الآية المباركة:

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴾

[سورة نوح الآيات: ١٠: ١٢].

فالاستغفار طريقنا إلى المغفرة، كما هو طريقنا إلى الفيض الإلهى والعطاء الذى لا ينفد ولا يفيض..

ثم هو يوم القيامة رفيقنا ودليلنا إلى جنة عرضها السماوات والأرض. أعدت للمتقين..

يقول عليه السلام:

« طوبى لمن وجد فى صحيفته استغفار كثير ».

ويقول :

«من أحب أن تسره صحيفته، فليكثر فيها من الاستغفار» ..

نحن ــ كما ذكرت ــ ضعاف أمام مغريات الحياة ومشوقات الخطيئة ..

وهذا ما يجعلنا أكثر ما نكون حاجة إلى الاستغفار ..

ومن حسن حظنا أن لنا رباً كريماً يقول لنا فى حديثه القدسى :

«يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرت غفرت لك ولا أبالى» !! ..

فالاستغفار مفتاح طريقنا، وسياج حياتنا، وموضع أملنا ورجائنا ..

يروى الصديق أبو بكر عن رسول الله قوله : **«ما من عبد يذنب ذنباً، فيحسن الطهور ــ أى الوضوء ــ ثم يقوم فيصلى ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر له، ثم تلا عليه السلام هذه الآية :**

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

[سورة آل عمران الآية : ١٣٥] .

يجب أن يكون استغفارنا أكثر من خطايانا .. ويجب أن يردده الجنان قبل ترديد اللسان.. ويجب أن يصدر عن نفس وآلهة خاشعة ضارعة ..

وبدون ذلك لن يكون استغفارنا ذا موضوع. وسيكون كما قالت السيدة رابعة العدوية: «استغفاركم يحتاج إلى استغفار» !! ..

وكلما أكثرنا من الاستغفار، كلما أطفأنا لهب الشهوات فى نفوسنا، وكلما آب الشيطان عنا خاسراً مدحوراً ..

يحدثنا أنس بن مالك رضى الله عنه فيقول: كنا مع الرسول فى مسيرة، فقال لنا: **«استغفروا الله فاستغفرنا .. فقال: أتموها سبعين فأتممناها .. فقال لنا الرسول أما من عبد ولا أمة يستغفر الله فى يوم سبعين مرة وإلا غفر الله له سبعمائة ذنب .. وقد خاب من عمل فى يوم وليلة أكثر من سبعمائة ذنب» !! ..**

• • •

إلا أن حياتنا موكب متصل من الذنوب والخطايا .. الكبير منها والصغير.. الخفى منها والمعلن..

فمن شاء فليأخذ حظه من هذه المنحة المعطاة ..

ومن شاء فليحرم نفسه .. وحسابه على الله.

٢١

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سئل رسول الله ﷺ: أى العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله وبرسوله.. قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله. قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور»..

(رواه البخارى ومسلم)

ها هم أولاء يتوافدون من كل فج عميق، ليشهدوا منافع لهم، ويذكروا اسم الله..

الحجيج الذين ذهبوا إلى مؤتمر الله ليطهروا من خطاياهم، ولينالوا الجزاء الأوفى من مغفرة ربهم ورحماته. ومن عطائه وهباته.. يقفون حيث وقف رسول الله، ويهللون حيث هلل ويلبون حيث لبى وكبر..

عنهم عن الحج يتحدث اليوم رسول الله ﷺ فى لقائنا معه..

يسأله سائل من أصحابه عن أفضل الأعمال، فيجيبه عليه السلام: **أفضل الأعمال: الإيمان بالله وبرسوله..** ثم يستزيد السائل: وماذا بعد الإيمان بالله وبرسوله؟ فيجيبه النبى: **الجهاد فى سبيل الله..** ويسأل السائل للمرة الثالثة: ثم ماذا ويجيبه الرسول: **حج مبرور..**

ففى الذروة إذن من هذا الدين يقف الحج المبرور..

والإيمان بالله يأتى أولاً، لأنه حيث لا إيمان فلا عمل..

ومع الإيمان يأتى الجهاد. حيث تلقى الأنفس الطاهرة مناياها ومصارعها تحت وهج السيوف..

ومع الإيمان والجهاد يجىء الحج بكل أنواره وأسراره ليأخذ مكانه العالى بين أركان الإسلام الحنيف..

ها هم أولاء يتوافدون من كل فج عميق. خرجوا من كل شىء حتى من ملابسهم وخلفوا الدنيا وراءهم ظهريا، وآووا إلى ركن شديد. الله قبلتهم ومثواهم ومأواهم وما يبتغون!!..

يطوفون بالكعبة المشرفة، ويسعون بين الصفا والمروة.. ثم يجتمعون من كل الأجناس والألسنة والألوان فوق عرفات كالدر المنثور، ثم يفيضون من عرفات ليذكروا الله عند المشعر الحرام.. أفواج تلو أفواج، وفيضان من البشر الذين أسلموا أنفسهم لله، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، وجاءوه شعثاً غبرا، لا رفث، ولا فسوق، ولا جدال..

ذلكم هم عباد الله، وهذا موكبه العظيم..

• • •

ولهؤلاء الكرام من الله الجزاء الأوفى. فهم لا يرجعون من الحج كما ذهبوا إليه موقرين بالخطايا والمآخذ. بل يضع الله عنهم أصرهم، والاغلال التى كانت عليهم بعد أن تمسهم يد الله برحمة، وتغشاهم السكينة، ويغمرهم الثواب..

يقول الرسول عليه السلام: **«من حج فلم يرفث ولم يفسق غفر الله ما تقدم من ذنبه وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»!.**

بل هنا وعد وعهد بعطاء أكثر إتساعاً وغدقاً..

وهو ماثل فى قول الرسول عليه السلام: **«الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»..**

كما هو ماثل في قول الرسول لعمرو بن العاص عندما جعل الله الإسلام فى قلبه فخرج ساعياً إلى المدينة ليسلم. ولندعه يروى لنا بلسانه..

«.. قلت: يا رسول الله. ابسط يمينك أبايعك، فبسط يده، فقبضت يدى، فقال عليه السلام: مالك يا عمرو؟ قلت: أردت أن أشترط. قال: اشترط ماذا؟ قلت: أن يغفر

لي.. قال: أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله» ؟؟.

هذه بشريات يسوقها النبى عليه السلام لوفد الله من الحجاج الذين خرجوا جماعات ووحدانا يرجون من الله رحمته، ويخافون عذابه، ويطمعون منه فى مغفرة شاملة وعطاء كريم..

ويبلغ الحج فى تقدير الرسول منزلة الجهاد.. فالحسن بن على رضى الله عنهما وعليهما السلام يحدثنا أن رجلاً جاء إلى النبى عليه السلام، فقال له: أنى جبان وإنى ضعيف، أى أنه لا يقدر على الجهاد، فقال له الرسول: **هلم إلى الجهاد لا شوكة فيه.. الحج..**

وحين تسأله عائشة رضى الله عنها قائلة: يا رسول الله، نرى الجهاد أفضل الأعمال.. أفلا نجاهد؟.. فأجابها الرسول: **لكن أفضل الجهاد حج مبرور..**

وفى حديث آخر يقول عليه السلام: **«جهاد الكبير، والضعيف والمرأة ــ الحج والعمرة»..**

• • •

والنفقة التى ينفقها الحاج فى سبيل الله طوعاً ومحبة، لا تذهب أدراج الرياح. بل ترد إليه مضاعفة. فلا يخشين أحد الفقر بسبب

ما ينفقه فى الحج. فإن الله قد ضمن لكل منفق فى سبيله خلفاً جميلاً..

وفى نفقة الحج بالذات يبشرنا الرسول ﷺ بحسب مآب، وحسن ثواب..

يقول عليه الصلاة والسلام:

«تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب، كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة. وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة»..

إن الحجاج والعمار وفد الله. دعاهم فأجابوا وسألوه فأعطاهم..

يقول الرسول ﷺ: **«وفد الله ثلاثة ـ الحاج، والمعتمر، والغازى»..**

فليس مؤمنا من يخشى الحج على ماله. ومن يظن أن الحج طريق إلى الفقر..

إن الله يعطى فى العبادات العادية الحسنة بعشر أمثالها، فكيف بعبادة هى والجهاد سواء؟ كيف بمن أسماهم الرسول ﷺ: **«وفد الله»**؟ كيف بمن قال عنهم الرسول ﷺ: **«يغفر للحاج ولمن يستغفر له الحاج»**؟!..

إن الذين يتركون الحج، ويناْون عن أداء فريضته ضنا بمالهم وحرصاً عليه إنما يضعون أموالهم فى مهب الرياح والعواصف.. فما

من عبد يضن ويشح بنفقة ينفقها فيما يرضى الله ، إلا أنفق أضعافها فيما يسخط الله ..

وإن الرسول ليضرب مثلاً للكعبة وهى تشتكى إلى الله فتقول : **يارب قل عوادى، وقل زوارى. فيقول الله لها: إنى خالق بشراً خشعاً سجداً يحنون إليك، كما تحن الحمامة إلى بيضها ..**

هذا مثل يضرب به الرسول ﷺ ، وأنه ليفىء علينا من الأمل ما يجعل أفئدتنا تكاد تطير شوقاً إلى بيت الله الحرام. ومثوى رسوله عليه الصلاة وأزكى السلام ..

إن الرسول يسخو بالوعود الصادقة على الذين يولّون وجوههم شطر المسجد الحرام ويسعون إليه فرحين مستبشرين. فهو يخبرنا أن من خرج من بيته يؤم البيت الحرام لا يرفع قدما ، ولا يضع أخرى إلا كتب الله بذلك له حسنة ، ومحا عنه خطيئة ..

وأما ركعتاه بعد الطواف فهما كعتق رقبة من ولد اسماعيل عليه السلام .. وطوافه بين الصفا والمروة كعتق سبعين رقبة. وأما وقوفه عشية عرفات، فإن الله يهبط إلى السماء الدنيا فيباهى بوفده الملائكة ويقول : **عبادى جاءونى شعثا من كل فج عميق يرجون جنتى، فلو كانت ذنوبهم كعدد الرمل، أو كقطر المطر، أو كزبد البحر لغفرتها .. ثم يقول: أفيضوا عبادى مغفوراً لكم ولمن شفعتم له ..**

وأما رميه الجمار فله بكل حصاة يرميها تكفير كبيرة من الموبقات.. وأما نحره فمذخور له عند ربه.. وأما حلقه رأسه فله بكل شعرة حلقها حسنة، ويمحى عنه بها خطيئة.. وأما طوافه بعد ذلك بالبيت، فإنه يطوف ولاذنب له..

يقول عليه السلام: **«يأتى ملك فيضع يديه بين كتفى الحاج ويقول له: اعمل فيما تستقبل، فقد غفر لك ما مضى»..**

وينظر الرسول إلى الحاج نظره إلى المجاهد، ويعتبر من مات فى الحج شهيداً له وضع الشهداء..

فعن ابن عباس رضى الله عنهما ـ أن رجلاً رفصته ناقته بعرفة فمات. فقال الرسول ﷺ:

«أغسلوه بماء وسدر وكفنوه بثوبيه، ولا تخمزوا رأسه ـ أى لا تغطوه ولا تحنطوه ـ فإنه يبعث يوم القيامة ملبياً»..

أى مزايا وأى عطايا تعدل تلك التى منحها الله الحجاج من عباده إنهم فى المكان الأعلى عند الله. وما كبر مكبر منهم على نشز، ولا أهل مهل على شرف إلا أهل ما بين يديه وكبر حتى ينقطع منه منقطع التراب..

● ● ●

ونلاحظ أنه كلما تحدث الرسول ﷺ عن الحج وصفه بالمبرور.. إذن هناك حج غير مبرور على المسلم أن يتجنب الوقوع فيه.

وأولى أمائر الحج المبرور أن تكون نفقته من حلال.. ذلك شرط يتوقف قبول الحج على وجوده..

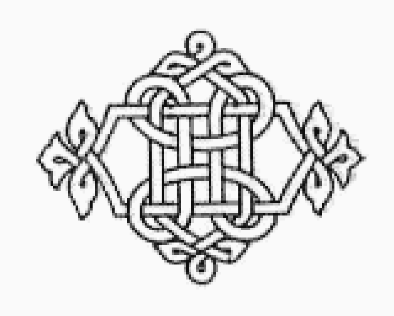
يقول عليه السلام: **«إذا خرج الحاج حاجاً بنفقة طيبة، ونادى لبيك اللهم لبيك.. ناداه مناد من السماء: لبيك وسعديك، زادك حلال، ومالك حلال، وراحلتك حلال، وحجك مبرور غير مأزور.. وإذا خرج بالنفقة الخبيثة ونادى: لبيك اللهم لبيك. ناداه مناد من السماء: لا لبيك، ولا سعديك. زادك حرام، ونفقتك حرام، وحجك مأزور غير مبرور»..**

إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً.. والذين ينمون ثرواتهم بالحرام عليهم ألا يطمعوا من الله فى قبولها حتى لو أنفقت فى طاعته. ذلك أن الله غنى عن عباده. وإذا توسل العبد إلى الطاعة بالمعصية كان حرياً أن يرفض عمله، وأن يركس بما كسب ونال..

ويصف القرآن الحج المبرور بأنه الذى لا رفث فيه ولا فسوق ولا جدال..

وهو أيضاً الحج الذى لاعجب فيه ولا خيلاء ولا رياء..

ثم هو الذى قال عنه الرسول مبشراً ومهنئاً «**ليس له ثواب دون الجنة**»..





٢٢

عن النبى ﷺ قال: «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها!!»

(رواه الإمام أحمد)

من كان يعرف فى تقدير العمل بل فى تقديسه حديثاً كهذا الحديث، فليأتنا به.. ولم يكن يعرف، فليعترف بأنه أمام أعظم معلمى البشر على الاطلاق، وأنه أمام تكريم للعمل لا يضاهيه تكريم.

وهاتوا كل ما كتب فلاسفة البشر وعباقرتهم عن توكيد الأمل وتقديس العمل، فإن تجدوا مثل هذا الذى قال الرسول عليه صلاة الله وسلامه.

إن «الفسيلة» هى الواحدة من صغار النخل تغرس فى الأرض لتنمو وتكبر فتصير فيما بعد نخلاً ذات أكمام.

والرسول ﷺ جاء ليهدى الناس من الظلمات إلى النور، وليحثهم على عبادة الله وطاعته. ولطالما كان يحدث أصحابه عن

الآخرة دار الرجعى والمآب وعن أهوالها الشداد .. تلك الأهوال التى تذهل أمامها **« كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هو بسكارى. ولكن عذاب الله شديد »** ..

فإن كان الناس يمارسون أعمالهم فى الحياة ، وقامت القيامة بغتة ، فماذا ينتظر من الرسول أن يقول لهم ؟ نحن نتصور أنه سيقول : كفوا عما تعملون ، وفروا إلى الله مستغفرين نادمين .

فإذا أخلف الرسول الظنون ، وقال للذين قامت عليهم الساعة : اتموا ما بأيديكم من عمل فذلك أعجب ما يقال فى هذا المقام !! وذلك أعظم ما يفاء على العمل من تقدير وتكريم ! ..

• • •

ونستطيع أن نعتبر هذا الحديث الذى صدرنا به الفصل معجزة من معجزات الإسلام . فليست المعجزة ما كان خارقاً للعادات وحسب ، بل هى أيضاً ما كان خارقاً فى التوجيهات .. ونحن تجاه هذا الحديث أمام توجيه خارق .. أمام حالة خارقة من حالات الأمر والتكليف . فما معنى أن تقوم الساعة التى تعلن إنتهاء الحياة ثم نؤمر بألا نذهل فى سكراتها وغمراتها عما بأيدينا من أعمال ؟! ..

أنظروا ..

إذا قامت الساعة بغتة ، وكان أحدكم يتهيأ لغرس **« فسيلة »** فليحذر أن يلقيها من يده ، لأن القيامة قامت والحياة انتهت لا ..

بل عليه أن يتم عمله، ويغرس فسيلته كما لو كان موكب الحياة لا يزال يمضي هادراً.. حتى في هذه اللحظة المباغتة الرهيبة التي تعلن نهاية الحياة، وتعلن قيام الساعة لتجزى كل نفس ما عملت وما كسبت. حتى في هذه اللحظة الحاسمة الداهمة حيث لا يصير للعمل جدوى لا سيما إذا تمثل في زرع نبته أو غرس فسيلة يوصي الرسول الجامع لكل حكمة أن نمضي في العمل وكأن شيئاً لم يحدث، وكأن الساعة لم تقم!!..

• • •

لقد أحب الرسول ﷺ العمل وعشقه وداوم الحث عليه، والدفع إليه، وفي ذلك مظهر واضح لتكامل شخصيته وتكامل دينه ورسالته..

فالرسول الذي دأبه النسك والعبادة، والذي لم يعرف الدنيا إلا معبراً إلى الآخرة يحفل بالعمل ويحتفي به حفاوة تكاد تجعله، بل هي تجعله نسكاً وعبادة وفريضة من فرائض الدين!! إنه يرى العمل جهاداً في سبيل الله..

وجميع الأمجاد التي ضفرت للعمل وللعاملين لا تصعد إلى أدنى مستويات التكريم الذي أضفاه الرسول والقرآن على العمل وعلى العاملين.. ذات يوم والرسول جالس بين نفر من أصحابه مر بهم شاب يتفجر بأساً ونشاطاً ومقدرة مسرع الخطى مفتول العضلات وبهر منظره بعض الأصحاب فقال قائلهم متعجباً: يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله؟؟..

فقال الرسول عليه السلام :

«إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً، فهو فى سبيل الله، وإن كان يخرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله. وإن كان يسعى على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله. وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة، فهو فى سبيل الشيطان»..

فى هذه الكلمات الوجيزة التى تحدث بها الرسول ﷺ الرجل الذى بهر أصحابه جلده وقوته وفتوته لخص عليه السلام كل ما يمكن أن يقال عن العمل من كلام كثير وأحاديث مفيضة. وفى مثل ومضى البرق وضعتنا كلماته الحكيمة الوجيزة أمام العمل بكل قيمه وكل أبعاده..

• • •

إن العمل الذى يزكيه الرسول ﷺ هو ذلك الذى يخلو من الرياء ومن البطر، ولا تدفعه أنانية ولا جشع، هو ذلك الذى يسد حاجة، ويمنع عوزاً، ويسهم فى عمارة الحياة. هو الذى يبتغى به الإنسان تحقيق الحياة الآمنة فى رزقها، لا الحياة المترفة الطامعة الشرهة.

والعمل الذى كرمه الرسول ﷺ وحض عليه، هو العمل فى كل مجالاته وتخصصاته — فى الوظيفة، وفى الحرفة، وفى التجارة،

وفى الزراعة . فى الطب .. فى التدريس .. فى الهندسة .. فى كل ما يزاول البشر من عمل وفى كل ما يمارسون من نشاط شريطة أن يتم فى نطاق الذمة والشرف والإتقان والاستقامة وهذا العمل هو عصب الحياة ومادة بقائها .. ومن ثم فهو واجب الأحياء حتى الرمق الأخير فيهم .. وهو حق الحياة حتى الرمق الأخير فيها .

وهذا هو معنى ومغزى الحديث العظيم :

« إذا قامت الساعة ، وفى يد أحدكم فسيلة ، فليغرسها » .

لقد خسر المسلمون كثيراً حين جهلوا هذا الحديث ومثله من الأحاديث الكثر التى مجد الرسول ﷺ فيها العمل وجعله عبادة وقربى وفريضة .

وبعد أن كنا مصدر إشعاع للحضارة بما بذلنا فى جسارة من جهد فى أعمار الحياة ، أمسينا ولا دور لنا فى الأعمال العظيمة التى تتألق فى الحضارة الماثلة ..

أقول : أمسينا ، ولا دور لنا إلا دور التابع والعالة لقد مرت بنا عصور جاهلة ومظلمة اهتدينا فيها بغير هدى الاسلام ، وران على عقولنا وقلوبنا من التعاليم ما صدنا عن الحياة وجعل التفوق فيها عبثا لا ينبغى للمسلم أن يقترفه ودلانا الجهل بغرور ، وظننا أننا سنكون سادة الآخرة بقدر ما نكون فى الدنيا مستضعفين أذلاء .. وصار أمرنا فرطاً !! ..

تركنا الكثير من الأعمال التى تدفع بذويها إلى الصفوف الأولى وكانت حجتنا : أن الدنيا ساعة ، فاجعلها طاعة !!..

ونسينا الكلمة العظيمة التى قالها أحد عظماء رعيلنا الأول «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا» ..

كما نسينا هذه الكلمات الوضيئة المضيئة :

«إذا قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة فليغرسها» !!

• • •

إن العمل ـــ كل العمل ـــ له فى ديننا ما ليس له فى أى دين ، وكما نقول دائماً : لم يذكر الإيمان إلا مقروناً بالعمل الصالح . وليس العمل الصالح وقفاً على العبادات المحضة ، بل هو يظل كذلك العمل فى سبيل الحياة .. إعمارها وإكثارها وإزهارها .. بل إنه من العبادات والقربات .

والمسلم الفاهم لدينه والمخلص له هو الذى يضرب فى الدنيا بذراع قوية باسلة ، ولا يترك مجالاً للابداع والعمل إلا نزح منه الدلاء الكثيرة وأبلى فيه بلاء حسنا ..

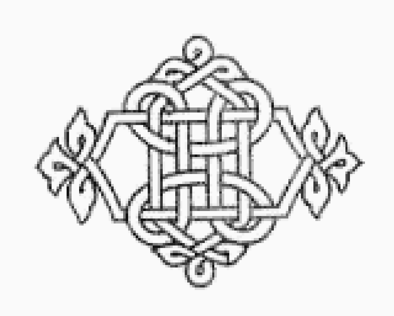
وإن خير ما نصنعه لأنفسنا اليوم ـــ هو إهاجة القدرة المبدعة الخلاقة وأن نعرف واجبنا نحو تشكيل المستقبل .. هذا المستقبل

الذى لن تصنعه سوى الأعمال الكبيرة والجليلة. الأعمال التى نتخطى بها المخاوف واليأس، ونقتحم بها أسوار المجهول، ونتذكر فيها قول الرسول ﷺ: «**إن الله يحب معالى الأمور**» فنأتى الأعمال العظيمة ونبرز فى مجال التقنية والاختراع والتقدم.

وخير ما تصنعه رؤوس الأموال فى عالمنا الإسلامى توظيفها فى التصنيع ـــ من الإبرة إلى الطائرة. وتوظيفها فى فتح مجالات العمل أمام الشباب والعاملين.

إن العمل فى ديننا رسالة. والعمل عبادة المؤمنين الأقوياء وكما سنسأل بعد الموت عما قدمنا لأنفسنا من عبادة، سنسأل عما خلفنا وراءنا من أعمال وآثار.

قال لنا: «**وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة**» هو الذى قال: «**اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**».





فهـــرس الأحـــاديث

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة